الدَّوْلَة العُثمَانيَّة

كفانا افتراءً عليها

مقدمة

بعد أن تعرّفنا العلوم والإنجازات الإسلامية، والأسس التي قامت عليها زمن العصر العباسي، نوصلُ رحلتنا الشائقة مع التاريخ الإسلاميِّ، ومع الباب الرابع والأخير منها؛ والذي سنتحدث فيه عن أخبار سلاطين آل عثمان المسلمين، وكيف كان جهادهم، ودعوتهم في سبيل الله، وحبهم للعلم والآداب وكيف تعاملوا مع سنن الله في بناء الدَّولة؛ كسنَّة التدرج، الأخذ بالأسباب، تغير النُّفوس، التَّدافع والابتلاء.

وهدفي من هذا الباب الأخير:

١- تسليط الضَّوء على زعماء الدَّولة العثمانيَّة وتبيان خدماتهم للدِّين والأمَّة.

٢- التَّركيز على أسباب النَّهضة العثمانيَّة، والأسباب التي نخرتها، وأسهمت في إضعافها، ثمَّ زوالها.

٣- بيان الكيد العظيم، والتَّآمر الشديد الذي تعرضت له الدولة العثمانيَّة من قبل دول أوروبَّة، واليهود.

تمهيد:

((الدّولة العثمانيَّة دولةٌ إسلاميَّةٌ مفترى عليها)) د. عبد العزيز الشنّاوي، ((العثمانيون في التاريخ والحضارة)) د.الدكتور محمّد حرب، ((تاريخ الدولة العثمانية)) د. علي حسّون، ((تاريخ الدولة العثمانية)) الأمير شكيب أرسلان، ((الدولة العثمانية)) د. علي الصلابي...

إنَّ للدَّولة العثمانيَّة كتباً بل مجلَّداتٍ فاقت صفحاتها المئات، خُطَّت بأيدي الكتَّاب الكبار، شهد على أحداثها عظماءُ الرِّجال، كان امتدادها على قرابة من سبعةِ قرون، لم تغفل عيون المتآمرين عنها حتى بعد القضاء عليها، حاولوا تحريف مجرياتها، شوَّهوا صورة سلاطينها، بل تمادوا إلى أن أنسونا جليل خدماتها وعظيم تضحياتها.

نسب العثمانيين:

يعود نسب السلاطين العثمانيين إلى عثمان بن أرطغرل بن سليمان شاه بن قيا ألب رئيس قبيلة ((قايي)) إحدى قبائل الغزّ التّركية المعروفة جيداً بين قبائل الأتراك سابقاً[1]، ففي منطقة ما وراء النهر التي نسميها اليوم (تركستان) والَّتي تمتدُّ من هضبة منغوليا، وشمال الصِّين شرقاً إلى بحر الخزر (بحر قزوين) غرباً، ومن السُّهول السِّيبريَّة شمالاً إلى شبه القارة الهنديَّة، وفارس جنوباً استوطنت عشائر الغز[2]، وعُرفوا بالتُّرك، أو الأتراك[3].

١- تاريخ الدولة العثمانيَّة، د. علي حسون، ص (١٢).

٢- انظر: تاريخ التُّرك في آسيا الوسطى، بارتولد، ترجمة أحمد العيد، ص (١٠٦).

٣- انظر: أخبار الأمراء والملوك السَّلجوقية، تحقيق د. محمد نور الدِّين، ص (٢-٤).

ومع تعاقب السنين اتَّسعت الدولة العثمانيَّة وعَظمَ أمرها، حتَّى غدت إمبراطوريَّةً تضمُّ أجناساً مختلفة من الشعوب، فهابها العالم أجمع، وخافتها دول أوروبا خاصة، فقد كانت أسلحةُ العثمانيين لا تعرف الملل أو التعب من مواجهة دولِ أوربا التي وقفت عاجزة تملأها الحيرةُ بسبب هزائمها المتكررة أمام هؤلاء الأبطال المسلمين.

فلم يجدوا بديلاً للقضاء على هذه القوة إلا أن يدمروها من الداخل بإشعال الفتن وإثارة الأفكار المنحرفة بين شعوبها، فيضمنوا تشتت كلمتهم وتفرقهم إلى شعوب كلٌ حسب انتمائه فيسهل عليهم بذلك مواجهتها، ومن ثمّ القضاء عليها.

لو لم تكن عصبيةُ المسلمين الدينية هي الغالبة، ولو قاموا ينافسون ابن سلجوق (ساعد على استمرار الخلافة العباسية) لكونه تركياً، وصلاح الدين الأيوبي (محرر القدس) لكونه كردياً، وابن تاشفين (ساعد على بقاء الإسلام في الأندلس) لكونه بربرياً، أو أوصى علماؤهم بخلع طاعةِ هؤلاء الملوك لمخالفتهم لهم في الجنس، أو سمحوا بنقض بيعتهم، لكان وقع الخُلف، وتفرقت الكلمة، ولكان الإفرنج أخذوا جميع بلاد المسلمين وغير الإفرنج أخذ الباقي، وصيروا المسلمين عبيداً، وطمسوا معالم الإسلام مِن كل بقاع الأرض، وصارت هذه الأمةُ أثراً بعد عين(*).

بل إن كلمة ابن عباد صاحب إشبيلية ما زالت تُحفَظُ إلى الآن ألا وهي: «رعي الجمال خير من رعي الخنازير»(**).

قد قالها بحق ابن تاشفين حين فضل أن يدخل في حمايته عن أن يدخل في حماية الإفرنج.

إذا كان هذا شأن الملوك من أبناء المماليك، الذين لا يعرف لهم أصل، فما قولك بأسرة آل عثمان، وهي التي حاطت الإسلام منذ ستمئة سنة، وقامت بدفع دول أوربة عن المشرق بأسره منفردةً بنفسها(***).

***- تاريخ الدولة العثمانية، الأمير شكيب أرسلان، ص (٥٢٩).**

****- انظر:- المعتمد ابن عباد للأستاذ علي أدهم، ص (٢٠٧).**

*****- تاريخ الدولة العثمانية، الأمير شكيب أرسلان ص (٥٣١).**

كيف نشأت الدولة العثمانية:

تبدأ القصَّة العثمانيَّة مع سليمان شاه جدِّ عثمان، والذي هاجر بعدَّة قبائل من التُّرك – منهم ألف فارس– من بلادهم تركستان إلى بلاد الأناضول، واستقرَّ بهم في أخلاط[1] ثمَّ كانت وفاته سنة ٦٢٨هـ، ليتولى زعامة القبيلة من بعده ابنه أرطغرل، حيث سكنوا بعض الوقت قريباً من أراضي السلاجقة، وبينما هم على تلك الحالة؛ إذ بهم يلمحون جيشين يقتتلان من بعيد وهم لا يعلمون عن هويتهما شيئاً، وكان أحد هذين الجيشين قليل العدد، فما لبثت قبائل التُّرك بقيادة أرطغرل أن انخرطوا يقاتلون في صفوفه بدافع النَّخوة ونصرة الضعيف، وتمَّ النصر لذلك الجيش، وتبيَّن فيما بعد أنَّه جيشُ المسلمين السلاجقة، وأمَّا الجيش الآخر فكان جيشاً بيزنطيًّاً، فما كان من السلطان السلجوقي علاء الدين إلا أن كافأ أرطغرل على عمله هذا، وأقطعه وقبيلته أرضاً في محاذاة بلاد الروم غربي دولة السلاجقة، فكانت مساحة تلك الأرض ٢٠٠٠كم٢، واستطاع أرطغرل بجهاده ضدَّ البيزنطيين توسيعها إلى ٤٨٠٠كم٢. ولما توفي أرطغرل سنة ٦٩٩هـ، تولى مكانه ابنه الأكبر عثمان، وحدث أيضاً أن توفي السلطان السلجوقي علاء الدين ونظراً لعدم وجود خليفةٍ له قام عثمان بضمِّ الأراضي التي كانت تحت حكم علاء الدين، واتخذ مدينة يكي شهر[2] عاصمةً له، واشتغل عثمان بعد ذلك بتنظيم البلاد، وترتيب الجنود، وجهاد البيزنطيين، وبذلك ظهرت البداية الحقيقية للدولة العثمانيَّة التي تنسبُ إليه[3].

١- أخلاط: بلدة في شرقي تركيا اليوم قريباً من بحيرة وان في هضبة أرمينيا.

٢- يكي شهر: مدينة في وسط الأناضول.

٣- تاريخ الدولة العثمانية، د. علي حسون، ص (١٢، ١٣).

الحضارة العثمانية وافتراءاتٌ يجب تصحيحها:

إنَّ التُّهمة الأولى التي تُنسَبُ للدولة العثمانية هي تخلفها العلمي، وعدم مواكبتها للتطور الفكري والحضاري الذي كان في أوجه في بلاد أوربا، ولكنَّ المُتَّهِم يتجاهل حقائق عدَّة يجب تسليط الضوء عليها لكونها أدلةً وقرائنَ تُخفِي وراءها حقيقة الأمر.

لم تكن الحضارة العثمانيَّة تعاني تخلُّفاً علمياً أو فكرياً، بل كانت تعاني بطئاً في عجلة التَّطور في الميادين كافة، وذلك لا لمشكلةٍ فيها بل من تربص أعدائها لها؛ فقد اتفقت عليها دول أوروبا تسعاً وأربعين مرّةً، مثنى، وثلاث، ورباع... فهي تقوم في وقت واحد بدفع أعداء الإسلام من الأمام، ودفع العجم من الوراء، وقمع الفتن الداخليَّة من الوسط، وتوغل في الفتوحات حتى تبلغ عاصمة النمسة، وحتى ينزلَ جنودها في سواحل إيطالية، وفي نيس[1] من فرنسة، فلا جرَمَ أنَّ دولةً هذه آثارُها في حفظ البيضة المحمديَّة، لا تكون إلا محمودةً، بل مقدَّسةً عند المسلمين[2].

وإن لم تكتفِ بهذا الكلام فإليك نص الحوار الَّذي كان يجريه فؤاد باشا الصَّدر الأعظم العثماني مع بعض الزعماء الأوربيِّين:

سُئل فؤاد باشا أثناء هذه الرحلة (كان في رحلة إلى أوروبا): بكم تبيعون جزيرة كريت؟

فردَّ الباشا قائلاً: (بالثَّمن الَّذي اشترياها به)، وكان يعني بذلك أنَّ العثمانيِّين حاربوا في سبيل الحفاظ على جزيرة كريت ٢٧ عاماً كلها حروب. وسئل أيضاً: ما هي أقوى دولةٍ في العالم الآن ؟ فردَّ قائلاً: أقوى دولةٍ الآن هي

١- مدينة تقع في جنوب فرنسا على ساحل البحر الأبيض المتوسط بين مارسيليا وجنوه.

٢- المصدر السابق نفسه.

الدَّولة العثمانيِّة، وذلك لأنَّكم تهدمونها من الخارج، ونحن نهدمها من الدَّاخل. و لم يستطع كلانا هدمها [1]. هذا الكلام كان سنة ١٨٦٧م.

فإن لم تقتنع بمغزى هذه الجمل البرَّاقة، سأزيدك من الشِّعر بيتاً آخر:

قام السُّلطان عبد الحميد الثَّاني بإرسال رسالة إلى هرتزل بواسطة صديقه نيولنسكي جاء فيها: «انصح صديقك هرتزل، ألا يتَّخذ خطواتٍ جديدةً حول هذا الموضوع، لأنِّي لا أستطيع أن أتنازل عن شبرٍ واحدٍ من الأراضي المقدَّسة، لأنَّها ليست ملكي، بل هي ملكُ شعبي. وقد قاتل أسلافي من أجل هذه الأرض وروَّوها بدمائهم؛ فليحتفظ اليهود بملايينهم، إذا مَزَّقت دولتي، من الممكن الحصول على فلسطين بدون مقابل، ولكن لزم أن يبدأ التَّمزيق أولاً في جثَّتنا، ولكن لا أوافق على تشريح جثَّتي وأنا على قيد الحياة»[2].

والله لو وضعت الأخطاء كافة التي تنسب للدولة العثمانيَّة بكفَّة وهذه الجملة العظيمة بكفَّةٍ أخرى؛ لرجحت هذه الجملة على كل ما سوها؛ فهي تؤكِّد على عُمقِ الشعور بالمسؤوليَّة تجاه أملاك الدَّولة.

وإنَّ الحاكم الذي يحمل هذا الشعور من المحال أن يُنسَبَ له أيُّ منع أو تقاعس عن السير بعجلة التطور إلى الأمام.

والتاريخ العثمانيّ ينقسم إلى ثلاثة أدوار:

١- دور الازدهار والقوة:

يبدأ من عهد السلطان عثمان الأول (٦٩٩هـ- ١٣٠٠م) وينتهي في عهد السلطان سليمان القانوني (٩٧٤هـ- ١٥٦٦م)، وفي هذا العصر وصلت الدولة

١- السّلطان عبد الحميد الثاني، محمد حرب، ص (٥٨).

٢- اليهود والدَّولة العثمانيَّة، د. أحمد النُّعيمي، ص (١٢٠).

العثمانيَّة إلى قمة مجدها وأوج اتساعها، فكانت الدُّول الأوربيَّة جميعها تدفع الجُزَى لها، ومن الجدير بالذكر أنَّ سلاطين هذا العصر كانوا قوَّاداً عسكريين من الطراز الأول، فكانوا يقودون الجيوش بأنفسهم، ويقاتلون كأي جنديٍّ، مما كان له أكبر الأثر في استبسال الجنود العثمانيين وبقاء الجيش قويَّاً بعيداً عن المفاسد.

٢- دور الركود:

ويبدأ من عهد سليم الثاني (٩٧٤هـ- ١٥٦٦) وينتهي في عهد مصطفى الثاني (١١١٥هـ- ١٧٠٣م) الذي في عهده وقِّعت معاهدة كارلو فيتس بين الدولة العثمانيَّة والنمسة في (٢٦) كانون الثاني عام (١٦٩٩م /١١١٠هـ) وفي هذه المعاهدة ألغيت جميع الجُزَى التي كانت الدّول الأوربيَّة تدفعها للدولة العثمانيَّة، وفي هذا الدور كانت زمام الأمور في الدَّولة للصدور العظام الذين نبغ منهم آل الصوقلي، وآل كوبرلي.

٣- دور الانحدار والانكماش:

ويبدأ من عهد السلطان أحمد الثَّالث (١١١٥هـ- ١٧٠٣م) وينتهي في عهد محمَّد وحيد الدِّين المعروف بمحمَّد السَّادس (١٣٤٤هـ- ١٩٢٢م) وهذا الدور كان دور هزائم متلاحقة، وكانت الدولة تحارب على عدَّة جبهات، وفي هذا الدور بدأ الاحتلال الأوربي يقتطع أطراف الدّولة دون أن تستطيع الدولة العثمانية أن تفعل شيئاً لضعف الجيش والدولة وانتهى هذا الدور بانفراط عقد الدَّولة العثمانيَّة وإلغائها بعد أن عاشت نحو سبعة قرون.

وفي هذا العصر أطلق على الدَّولة اسم الرجل المريض، والذي كان يَحُولُ دون وفاته؛ عدم اتفاق الدول المعاديَّة له على الغنائم[1].

١- تاريخ الدولة العثمانيَّة، الأمير شكيب أرسلان، ص (١٠-١١)

اغرس اليوم شجرةً
تنم في ظلها غداً

المبحث الأول

دور الازدهار والقوة

(١) عثمان بن أرطغرل

(٦٩٩-٧٢٦هـ)،(١٣٠٠- ١٣٢٦م)

إنَّ بداية أيِّ أمَّةٍ في التَّمكين والقوَّة هي أقصى نقطةٍ لها من الضَّعف والانحطاط. هكذا هي حكمة الله، وإرادته، ومشيئته النَّافذة [١]. قال تعالى: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ [القصص: ٥]. ففي عام ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م؛ شاء الله تعالى أن تزول الخلافة الإسلاميَّة العباسيَّة في بغداد، وأن يتفرق المسلمون إلى أقاليم ودويلاتٍ متعددة، ولكنَّ رحمته عزَّ وجل قضت في العام ذاته أن يولد عثمان بن أرطغرل الذي حمل راية الإسلام في بلاد الأناضول، وأكملت ذريَّته المسيرة من بعده لتدخل البلاد الإسلامية من جديد ظلَّ شجرةِ خلافة إسلامية رابعة نسب تأسيسها إلى عثمان بن أرطغرل فاستحقت اسم الخلافةً العثمانية.

أهم الصفات القيادية في عثمان الأول:

كانت شخصية عثمان متزنة وخلابة بسبب إيمانه العظيم بالله واليوم الآخر، ولذلك لم تطغ قوته على عدالته، ولا سلطانه على رحمته، ولا غناه على تواضعه، وأصبح مستحقاً لتأييد الله وعونه، ولذلك أكرمه الله بالأخذ بأسباب التمكين والغلبة، فجعل له مكانة وقدرة على التصرف في آسيا الصغرى من حيث التدبير

١- الدولة العثمانيَّة، د. علي محمَّد الصلابي، ص (٤٤).

والرأي وكثرة الجنود والهيبة والوقار، لقد كانت رعاية الله له عظيمة ولذلك فتح له باب التوفيق وحقق ما تَطلَّع إليه من أهداف وغاية سامية. ونذكر من صفاته:

١- التجرُّد لله في فتوحاته:

يصفه المؤرِّخ أحمد رفيق في موسوعته التاريخ العام الكبير: «كان عثمان متديِّناً للغاية، وكان يعلم أنَّ نشر الإسلام، وتعميمه واجبٌ مقدَّسٌ، وكان يتمتع بفكرٍ سياسيّ واسع متين، ولم يؤسس عثمان دولته حبَّاً في السُّلطة، وإنَّما حبَّاً في نشر الإسلام».

٢- الحكمة:

لقد رأى من الحكمة أن يقف مع السلطان علاء الدين ضد النصارى، وساعده في افتتاح جملة من المدن المنيعة، وعدة قلاع حصينة، ولذلك نال رتبة الإمارة من السلطان السلجوقي علاء الدين. وسمح له بسك العملة باسمه، مع الدعاء له في خطبة الجمعة في المناطق التي تحت إمرته[1].

٣- الإخلاص:

عندما أحسَّ سكان الأراضي القريبة من إمارة عثمان إخلاصه للدين تحركوا لمساندته والوقوف معه لتوطيد دعائم دولة إسلامية تقف سداً منيعاً أمام الدولة المعادية للإسلام والمسلمين. يقول مصر أوغلو: «لقد كان عثمان بن أرطغرل يؤمن إيماناً عميقاً بأن وظيفته الوحيدة في الحياة هي الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمة الله، وقد كان مندفعاً بكل حواسه وقواه نحو تحقيق هذا الهدف».

١- انظر: تاريخ الدولة العثمانية، د. علي حسون، ص (١٣) / تاريخ الدولة العلية العثمانية، محمد فريد بك المحامي، ص (١١٨).

الدستور الذي سار عليه العثمانيون:

حفظ لنا التّاَريخ وصيَّة عثمان لابنه أورخان، وهي دليلٌ حضاريٌّ مشرف للإسلام والمسلمين، ولهذه الوصيَّة أشكالٌ عدة تصبُّ جميعها في بوتقةٍ واحدة.

وهي: «اعلم يا بني أنَّ نشر الإسلام، وهداية النَّاس إليه، وحماية أعراض المسلمين، وأموالهم أمانةٌ في عنقك، سيسألك الله- عزَّ وجلَّ- عنها»[1].

وفاة الأمير عثمان:

توفي رحمه الله في ٢١ رمضان سنة ٧٢٦هـ / ٢١ آب ١٣٢٦م، عن سبعين سنة قضى معظمها في تأسيس هذه الدولة الملحوظة بعين العناية الربانية وتوسيع نطاقها، ودفن في مدينة بورصة[2].

١- جوانب مضيئة، ص (٢١).

٢- تاريخ الدولة العلية، محمد فريد بك المحامي، ص (١٢٢).

إذا كنت تجد المتعة في عملك فسيجد الآخرون المتعة في العمل تحت إمرتك

(٢) أورخان بن عثمان
(٧٢٦-٧٦١هـ)، (١٣٢٦-١٣٦٠م)

ولد أورخان سنة ١٢٨١م، كان طويل القامة أشقر اللحية أزرق العينين، رقيق الفؤاد شفوقاً على الضعفاء حليماً مع الأعداء[١]. وهذا ما أكده الرَّحالة (ابن بطوطة) الذي زار بلاده آنذاك والتقى به إذ يقول عنه:

«وهذا السلطان أكبر ملوك التُّركمان وأكثرهم مالاً وبلاداً وعسكراً، له من الحصون ما يقارب مائة حصن، وهو في أكثر أوقاته لا يزال يطوف عليها... ويقال إنَّه لم يقم قطُّ شهراً كاملاً ببلده، ويقاتل الكفَّار ويحاصرهم...»[٢].

الفتوحات في عهده[٣]:

ساهم أورخان بتوسعة رقعة الدَّولة التي عمل والده على إيجادها وتقويتها، فخاض المعارك بنفسه وقاد الجيوش ضد النَّصارى المتآمرين عليه.

١- تاريخ الدولة العثمانيَّة، د. علي حسُّون، ص (٢٥).

٢- تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ص (٢٠٥).

٣- تاريخ الدولة العلية، محمد فريد بك، ص (١٢٦، ١٢٧).

وقد اعتمد على أعوان أقوياء لوضع القوانين وسن الأنظمة، ومن أبرزهم أخوه الأمير علاء الدين الذي نصبه وزيراً له.

كما حرص على تحقيق بشارة الرسول ﷺ في فتح القسطنطينية[1]، ووضع خطةً إستراتيجيةً تهدف إلى محاصرة العاصمة البيزنطية من الغرب والشرق في آن واحد، ولتحقيق ذلك أرسل ابنه وولي عهده سليمان لعبور مضيق الدردنيل[2] والاستيلاء على بعض المواقع في الناحية الغربية.

وفي عام ٧٥٨هـ / ١٣٥٧م اجتاز سليمان باشا مضيق الدردنيل ليلاً مع أربعين جندياً، ولما أدركوا الضفة الغربية قاموا بفتح عدة قلاع جميعها يقع على مضيق الدردنيل من الجنوب إلى الشمال، واستولوا على عدد من الزوارق الرومية هناك وعادوا بها إلى الضفة الشرقية؛ إذ لم يكن للعثمانيين أسطول حينذاك حيث لا تزال دولتهم في بداية تأسيسها، وبهذا خطا السلطان خطوة كبيرة استفاد بها من جاء بعده في فتح القسطنطينية.

وفي سنة ١٣٥٩م توفي سليمان باشا وليُّ عهد الدولة بسبب سقوطه من على ظهر جواده، وبذلك صارت ولاية العهد إلى أخيه مراد الأول.

١- القسطنطينية: عاصمة الإمبراطورية الرومانية خلال الفترة من ٣٣٠ إلى ٣٩٥ وعاصمة الدولة البيزنطية من ٣٩٥ إلى ١٤٥٣، حين فتحها العثمانيون، فدخل محمد الفاتح القسطنطينية، وأطلق عليها (إسلام بول) أو الآستانة وبدخوله صارت المدينة عاصمة السلطنة العثمانية. غير اسمها في عام ١٩٣٠ إلى اسطنبول ضمن إصلاحات أتاتورك القومية.

٢- مضيق الدردنيل: هو مضيق بحري واقع بين شبه جزيرة جاليبولي، وشاطئ آسيا الصغرى، وقد اعتنت الدولة العثمانية بعد امتلاكها للقسطنطينية بتحصينه فبنت القلاع على جانبيه حتى أصبح منيعاً يستحيل على أكبر أسطول أن يقتحمه بدون أن يتعرض لأكبر الأخطار.

وفي عهده نقلت عاصمة الدولة العثمانية إلى بورصة [١] كما تم سك أول نقد عثماني وتمكن من انتزاع أزمير[٢] وأنقرة[٣].

جيش الإنكشارية[٤]:

اهتم الأمير أورخان بأمر الجيش كثيراً نظراً لأهميته في الدَّولة، فأمر بإعداد جيوش منظمة وأنشأ لهم أماكن تدريبٍ خاصة، أما جيش الإنكشارية فتعود فكرته إلى الأمير علاء الدين أخي الأمير أورخان؛ حيث اتِّسعت رقعة الدَّولة، وكثرت انتصاراتها في حروبها مع أعدائها من غير المسلمين، ودخلت أعداد كبيرة من أبناء تلك البلاد المفتوحة في الإسلام، وانضموا إلى صفوف المجاهدين، فتمَّت تربيتهم تربيةً إسلاميَّةً فكريَّة وحربيَّة، فغُرس حب الجهاد في قلوبهم، وأصبح شعارهم (غازياً أو شهيداً) عندما يذهبون إلى ساحات الوغى[٥]، وكانت راية الجيش الجديد من قماش أحمر، وسطها هلال، وتحت الهلال صورةٌ لسيفٍ أطلقوا عليه اسم (ذو الفقار) تيمناً بسيف الإمام عليٍّ، رضي الله عنه[٦].

١- بورصة: رابع أكبر مدن تركيا، تقع في غرب البلاد بين مدينتي اسطنبول وأنقرة.

٢- أزمير (بالتركية: Izmir): ثالث أكبر مدن وثاني أكبر موانئ تركيا. تسمى أيضاً بلؤلؤة إيجة لوقوعها على الشاطئ الشرقي لبحر إيجة وجمالها.

٣- أنقرة: عاصمة تركيا وثاني أكبر مدنها بعد اسطنبول، بقيت تحت حكم البيزنطيين حتى فتحها السلاجقة، ثم سقطت في أيدي المغول إلى أن سيطر عليها العثمانيون في القرن الرابع عشر، ومنذ عام ١٩٢٣ أعلن مصطفى كمال أتاتورك أنقرة عاصمة للجمهورية التركية.

٤- يعود سبب تسميته إلى الحاج بكطاش الذي بارك تأسيسه وسماه (يني تشارى) ويرسم بالتركية هكذا (يكيجارى) أي الجيش الجديد، ثم أصبح يلفظ في العربية باسم الانكشاري.

٥- المصدر السابق نفسه.

٦- جوانب مضيئة، ص (١٤٧).

ولكنَّ أعداء الدولة العثمانية اتَّهموا الأمير أورخان بأنَّه أوجد نظام (الدَّفشرية) وأنَّه نظامٌ يستند إلى ضريبة إسلاميَّة أطلقوا عليها اسم (ضريبة الغلمان) وهي تسمح للعثمانيين بأخذ خُمس عدد أطفال كل مدينة، وزجهم بين صفوف الجيش[١].

وهذا ليس بصحيح، فالأمير أورخان لم ينتزع غلاماً واحداً من بيت أبيه، ولم يكره أحداً على اعتناق الإسلام، وأنَّ كل ما زعمه (بروكلمان، جب، جيبونز) كذبٌ واختلاقٌ، ينبغي أن تزال آثاره من كتب تاريخنا الإسلامي[٢].

سياسته الداخلية:

اهتم أورخان بتوطيد أركان دولته، فعمد إلى الأعمال الإصلاحيَّة والعمرانيَّة، ونظم شؤون الإدارة، وقوَّى الجيش، وبنى المساجد، وأنشأ المعاهد العلميَّة [٣] وأشرف عليها خيرة العلماء والمعلمين، وكانوا يحظون بقدرٍ كبيرٍ من الاحترام في الدولة، وكانت كل قريةٍ بها مدارسها، وكل مدينةٍ بها كليَّتها التي تعلم النَّحو والتَّراكيب اللغويَّة والمنطق والميتافيزيقا والهندسة والفلك وبالطبع تحفيظ القرآن وتدريس علومه والسنَّة والفقه [٤].

وفاة أورخان:

انتقل الأمير أورخان سنة ١٣٦٠م إلى الدار الآخرة وعمره ٨١ سنة ومدة حكمه ٣٥ سنة، وذلك بعد أن أيَّد الله الدولة بفتوحاته الجديدة وتنظيماته

١- جوانب مضيئة، ص(١٢٢).

٢- المصدر السابق نفسه، ص (١٥٥).

٣- انظر: محمد الفاتح، د. سالم الرشيدي، ص (٢٥).

٤- انظر: في أصول التَّاريخ العثماني، محمَّد عبد الرحيم، ص (٤٠).

العديدة، وقد وسَّع مساحة الدولة العثمانيَّة من ١٦ ألف كم٢ إلى ٩٥ ألف كم٢[١]. ودفن في مدينة بورصة حيث دفن سلاطين آل عثمان الستة الأوائل[٢].

رسم لجندي من الإنكشارية في القرن الخامس عشر، بريشة جنتيلي بللين

١- تاريخ الدولة العثمانيَّة، د. علي حسّون، ص (٢٦).

٢- تاريخ الدولة العلية، محمد فريد بك، ص (١٢٩).

(٣) مراد الأوّل ابن أورخان
(٧٦١- ٧٩١هـ)،(١٣٦٠- ١٣٨٩م)

كان مراد الأول ابن أورخان، المولود عام ١٣٢٦م، والمتوفى عام ١٣٨٩، رجلاً طويلاً بيضاوي الوجه ضخم الجسم مفتول العضلات ويضع عمامة على رأسه لباسه بسيطٌ جداً، وكان عطوفاً وعاقلاً يقيم اعتباراً خاصاً للعلماء وأصحابِ الفنون، ويعامل الفقير والمحروم بإكرام وسخاء. أمضى طفولته وفتوَّته في بورصة حيث درس على يد العلماء فيها، أحب الجهاد في سبيل الله، واهتمَّ بإشادة الأبنية العظيمة والنَّفيسة وأعمال الفنون، وبناء المساجد والمدارس الإسلاميَّة، ومطاعم الفقراء، وأسس أيضاً أول قصر سلطانيٍّ أثناء حكمه [١].

فتوحاته والتحالفات الصليبية ضده:

كان الأمير مراد رجلاً ذا همَّةٍ عاليةٍ محبَّاً للجهاد ونشر الإسلام؛ ففي أوربة هاجم الجيش العثمانيُّ أملاك الدَّولة البيزنطيَّة، واستولى على مدينة أدرنة[٢] في عام ٧٦٢هـ / ١٣٦٠م، وكان لتلك المدينة أهميةٌ استراتيجيَّة في البلقان، فقد كانت ثاني مدن الإمبراطوريَّة البيزنطيَّة بعد القسطنطينيَّة، واتخذها الأمير مراد

١- انظر: تاريخ الدولة العثمانيَّة، د. علي حسون، ص (٢٦).

٢- أدرنة: إحدى مدن تركيا وتقع في أقصى الجهة الغربية من القسم الواقع في أوروبا قريبا من حدود بلغاريا واليونان. أسسها الرومان في القرن الثاني الميلادي وسقطت في يد العثمانيين في سنة ١٣٦٠م وصارت عاصمتهم من ١٣٦٥ م إلى ١٤٥٣م.

عاصمة لدولته، وبذلك انتقلت العاصمة إلى أوربة، وأصبحت أدرنة عاصمةً إسلاميَّة[١].

فاضطرب لذلك الملوك المسيحيون المجاورون للدولة العثمانية وطلبوا من البابا أوربانوس[٢] الخامس أن يتوسط لدى ملوك أوروبا ليساعدوهم على محاربة المسلمين وإخراجهم من أوروبا خوفاً من امتداد فتوحاتهم إلى ما وراء جبال البلقان.

فلبى البابا استغاثتهم وشُكل حلفاً صليبياً لمواجهة الأمير مراد، ووقفِ الزحف العثماني على أوروبا، فحشد جيشاً بلغ عدده ستين ألف جنديٍّ نصراني تصدَّى لهم القائد العثمانيِّ (لا لا شاهين)، وقابلهم على مقربةٍ من نهر مارتيزا[٣]، حيث وقعت معركةٌ مروِّعة، انهزم فيها الجيش المتحالف هزيمةً نكراء[٤].

وفي تلك الأثناء كان الأمير مراد مشتغلاً بالقتال في بلاد آسيا الصُّغرى، حيث فتح عدَّة مدن ثمَّ عاد إلى مقرِّ سلطته لتنظيم ما فتحه من الأقاليم والبلدان كما هو شأن القائد الحكيم[٥].

كان من نتائج انتصار العثمانيين في هذه المعركة أن وصلوا إلى جنوب بلغاريا، وإلى شرق صربيا[٦].

١- الدولة العثمانيَّة، د. الصلابي، ص (٥٩).

٢- وهو فرنسي المولد ولد سنة ١٣١٠م ومات سنة ١٣٧٠م، وانتخب بابا سنة ١٣٦٢م.

٣- نهر مارتيزا: وهو يتجه من بلغاريا نحو الشرق حتى أدرنة حيث يتجه جنوباً ليشكل الحدود التركية اليونانيَّة، ثم يصب في بحر إيجة.

٤- انظر تاريخ الدولة العلية العثمانية، محمد فريد، ص (١٣١).

٥- المصدر السابق.

٦- الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، د. إسماعيل ياغي، ص (٣٧).

معركة قوصوة أو كوسوفو[1]:

كما قلنا في بداية البحث لم تكن القوى الأوربية تهدأ أو تَكَلُّ عن مقاتلة العثمانيين الأبطال فإذ بتحالفٍ آخر يتم بين الصرب، والبوسنيين البلغار، الَّذين أعدُّوا جيشاً أوربيَّاً كثيفاً، للوقف في وجه فتوحات العثمانيين، فكان التقاء الجيشين في منطقة كوسوفو في البلقان[2].

وبدأ القتال بين الجيشين بحالةٍ يشيب من هولها الولدان، دافع أثناءها الصربيون دفاعاً مستميتاً، وبقيت الحرب بينهما سجالاً مدةً من الزمن تناثرت فيها الرؤوس وزهقت النفوس لتنتهي المعركة بنصر العثمانيين[3].

استشهاد الأمير مراد:

بعد الانتصار في قوصوة قام الأمير مراد يتفقد ساحة المعركة، ويدور بنفسه بين صفوف القتلى من المسلمين، ويدعو لهم، كما كان يتفقد الجرحى، وفي أثناء ذلك قام جنديٌّ من الصرب كان قد تظاهر بالموت، وأسرع نحو الأمير، فتمكن الحراس من القبض عليه، ولكنَّه تظاهر بأنَّه جاء يريد محادثة السلطان، ويريد أن يعلن إسلامه على يديه، وعند ذلك أشار الأمير مراد للحرس بأن يطلقوه، فتظاهر بأنَّه يريد تقبيل يد الأمير وقام بحركةٍ سريعةٍ مخرجاً خنجراً مسموماً، طَعَنَ به الأمير، فاستشهد رحمه الله في ١٥ شعبان ٧٩١هـ[4]. وكان عمره ٦٥ عاماً، توسعت حدود الدولة في عهده من مساحة ٩٥ ألف كم٢ إلى ٥٠٠ ألف كم[5].

١- معركة قوصوة: هي معركة وقعت سنة ٧٩١ هـ / ١٣٨٩م بين جيش العثمانيين وجيوش الصليبيين المكونة من الجيش الصربي والألباني بقيادة ملك الصرب أوروك الخامس. حدثت المعركة في مكان يسمى قوصوة (كوسوفو حالياً).

٢- انظر: محمد الفاتح، د. سالم الرشيدي، ص (٣٠).

٣- تاريخ الدولة العلية، محمد فريد، ص (١٣٥).

٤- انظر: تاريخ سلاطين آل عثمان، للقرماني، ص (١٦).

٥- album of the ottomans.

ما الفشل إلا هزيمة مؤقتة تخلق لك فرص النجاح

(٤) بايزيد ابن مراد الأوّل (٧٩١- ٨٠٥هـ)، (١٣٨٩- ١٤٠٢م)

ولد سنة ٧٦١هـ/١٣٦٠م، وهو أكبر أولاد أبيه الأمير مراد الأول. كان كمثلِ البرق في تحركاته بين الجبهتين البلقانيَّة، والأناضوليَّة، ولذلك أطلق عليه لقب ((يلدرم)) أي الصَّاعقة، فقد استهدف الإمارات الصغيرة المتفرقة في الأناضول، وخلال عام واحد جعلها تابعةً للدولة العثمانيَّة [١].

والسلطان بايزيد هو أول من لُقب بالسلطان، وقد كان رجلاً متديِّناً مقيماً لصلاة الجماعة، ويروى أنَّه شهد يوماً بقضيَّةٍ أمام القاضي ((شمس الدِّين حمزة الفناري))، فردَّ القاضي شهادة بايزيد، فسأله عن سبب ردِّه، فقال القاضي: إنَّك تاركٌ للجماعة، فأمر بايزيد ببناء جامعٍ أمام قصره وعيَّن لنفسه فيه موضعاً، ولم يترك الجماعة بعد ذلك[٢].

حكمته مع الصرب وحزمه تجاه بلغاريا:

عمل السلطان بايزيد على ترتيب الشأن الداخلي والقضاء على الثورات في الأناضول[٣]؛ إذ انقرضت في عهده جميع الإمارات السلجوقية[٤] الصغيرة القائمة

١- انظر: الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، ص (٤٠).

٢- كتاب الشقائق النعمانيَّة في علماء الدولة العثمانية، ص (١٩).

٣- الأناضول شبه جزيرة جبلية في غرب آسيا على البحر المتوسط تشمل معظم الأراضي التركية وتعرف أيضاً بآسيا الصغرى. تحيط بها بحار إيجة ومرمرة والبحر الأسود.

٤- لما سقطت دولة السلجوقيين التي كانت مرافقةً للخلافة العباسية تجزأت أملاكهم في بلاد الأناضول إلى عشر إماراتٍ صغيرة، ضمت جميعها بالفتح الإسلامي إلى مملكة آل عثمان.

ببلاد الأناضول، وصار العلم العثماني يخفق منصوراً فوق صروحها[1].

ثمَّ اتجه إلى أوروبا وبدأ أوَّل خطواته هناك بإقامة حلف ودي مع الصرب، وربما يستغرب القارئ من هذه المحالفة؛ ذلك لأن الصرب كانوا من أشد الناس عداوةً للمسلمين، ولأنهم كانوا السبب في قيام تحالف بلقاني صليبي ضد المسلمين، بل إن الأمير مراد الأول والد السلطان بايزيد قد قُتل في حربه ضدهم، وكل هذه الأسباب كافية لمنع التحالف معهم، ولكن السلطان بايزيد كان له وجهة نظر ذكية؛ وهي أن الحلف مع الصرب يجعلهم بمنزلة الحاجز القوي بين الدولة العثمانية وإمبراطورية المجر[2] التي كانت وقتها أقوى الممالك الأوروبية، وكانت علاقة المجر والصرب متوترة، فاستغل بايزيد ذلك للتفرغ إلى الغرب والوسط الأوروبي وفتح القسطنطينية.

إن تحالف بايزيد مع الصرب هو من فقه الموازنة بين المصالح والمفاسد الذي يحتاجه الحاكم المسلم على الدوام، ولا يفهم من هذا الفقه إباحة ما حرمه الله عز وجل أو الإخلال بعقيدة الولاء والبراء، إنما هو من جنس المعاهدات المؤقتة التي تخدم هدفاً معيناً لفترة معينة، أي أنها لا تُبطل شريعة الجهاد في سبيل الله أبداً وهي تشبه جنس معاهدة الحديبية[*] وغيرها.

١- تاريخ الدولة العلية، محمد فريد بك، ص (١٤٠).

٢- المجر: (التي تعرف أيضا بهنغاريا) هي دولة أوروبية تقع في شرق أوروبا. يحدها من الشمال سلوفاكيا، من الشمال الشرقي أوكرانيا، من الشرق رومانيا، من الجنوب كرواتيا وسلوفينيا، من الغرب النمسا ولا تملك الدولة منفذاً على البحر.

*- صلح الحديبية: هو صلح عقد في شهر شوال من العام السادس للهجرة (مارس ٦٢٨م) بين المسلمين وقريش وبمقتضاه عقدت هدنة بين الطرفين مدتها عشر سنوات.

وبناءً على هذا التحالف قام بتوجيه ضربةٍ خاطفة إلى بلغاريا وفتحها سنة ٧٩٧هـ /١٣٩٣م، وبذلك أصبحت بلغاريا من وقتها إمارة تابعة للدولة العثمانية، مما جعل أوروبا ترتجف رعباً من (الصاعقة الإسلامية) التي فتحت البلاد الواحدة تلو الأخرى[١].

واستطاع السلطان بايزيد أن يفرض على إمبراطور بيزنطة مانويل عدة شروط منها:

١- إنشاء محكمة إسلامية وتعيين قضاة مسلمين بها للفصل في شؤون الرعية المسلمة بها.

٢- بناء مسجد كبير بها والدعاء فيه للخليفة العباسي بمصر ثم للسلطان بايزيد وذلك يوم الجمعة.

٣- تخصيص ٧٠٠ منزل داخل المدينة للجالية المسلمة بها.

٤- زيادة الجزية المفروضة على الدولة البيزنطية [٢].

معركة نيكوبوليس أو نيكوبلي:

كان النصر الذي قام به الجنود العثمانيُّون في بلغاريا سبباً في تحالفٍ صليبيٍّ آخر ضد هذه الدولة الإسلاميَّة العظيمة؛ حيث قام سيجسموند[٣] ملك المجر، والبابا التَّاسع[٤] بالدعوة لتكتُّلٍ أوربيٍّ مسيحيٍّ ضدَّ الدولة العثمانيَّة، فكان ذلك

١- الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، ص (٤١).

٢- اختصار من (في أصول التاريخ العثماني)، أحمد عبد الحليم، ص (٥٤،٥٥).

٣- هو Sigis Mond de ملك المجر من ١٣٨٧ إلى١٤٣٧م، وملك رومانيا من ١٤١١إلى ١٤٣٣م، وإمبراطور ألمانيا من ١٤٣٣ إلى ١٤٣٧م وهو تاريخ وفاته.

٤- البابا بونيفاس التاسع (١٣٥٦- ١٤٠٤)، بابا الكنيسة الكاثوليكية الـ٢٠١. تولى البابوية من ٢ نوفمبر ١٣٨٩ حتى وفاته في ١ أكتوبر ١٤٠٤.

التَّكتُّل من أكبر التكتلات التي واجهتها الدولة العثمانيَّة في القرن الرابع عشر، من حيث عدد الدول التي اشتركت وأسهمت فيه بالسلاح والفرسان وبلغ العدد الإجمالي لهذه الحملة ١٢٠,٠٠٠مقاتل من مختلف الجنسيَّات (ألمانيا، فرنسا، إنجلترا، سويسرا، وبعض الإمارات الإيطاليَّة)[١].

تحركت الحملة عام (٨٠٠هـ /١٣٩٦م) إلى المجر، وكادت الدول المتحالفة أن تنتصر لولا ظهور بايزيد المفاجئ ومعه نحو مئة ألف جنديٍّ، ففرَّق صفوفهم وألحق الهزيمة بهم وذلك بفضلٍ من الله، وبحسن التنظيم والتخطيط الذي اتبعه بايزيد، وخرج العثمانيون من معركة نيكوبوليس بغنائم كثيرةٍ وفيرة، واستولوا على ذخائر العدو[٢].

هذه هي معالم القوَّة الإسلاميَّة التي تتجلى على المسلمين عندما يحسنون الإيمان بالله ويتجهون بجوارحهم كلها لعبادته وتنفيذ شريعته الحنيفة، هكذا تكون الأجيال المؤمنة حينما تُزرع في قلوبها العقيدة السليمة، وتُزَيَّنُ أفعالها بالسنة المحمديَّة الشريفة.

إن ما يسعى إليه الإنسان السامي يكمن في ذاته هو، أما الدنيء فيسعى لما لدى الآخرين (كونفوشيوس)

الصدام بين تيمورلنك وبايزيد:

ينتمي تيمورلنك[٣] إلى الأسر النَّبيلة في بلاد ما وراء النهر، وفي عام ١٣٦٩م جلس على عرش

١- انظر: الدولة العثمانيَّة، د. الصلابي، ص (٦٨).

٢- اختصار من كتاب الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، ص (٤٢)

٣- تيمورلنك (١٣٣٦- فبراير ١٤٠٥ م): قائد مغولي من القرن الرابع عشر ومؤسس الإمبراطورية التيمورية (١٣٧٠- ١٤٠٥ م) في وسط آسيا، وأول الحكام في العائلة التيمورية الحاكمة والتي استمرت حتى عام ١٥٠٦ م. وتعني كلمة «لنك» «الأعرج» نتيجة لإصابته بجرح خلال إحدى معاركه. أما كلمة تيمور فتعني بالمنغولية=

خراسان، وقاعدته سمرقند، استطاع أن يتوسع بجيوشه الرهيبة وأن يهيمن على القسم الأكبر من العالم الإسلامي، حيث انتشرت قوَّاته الضخمة في آسيا من دلهي إلى دمشق[1].

وكانت هناك عوامل، وأسباب أسهمت في إيجاد صراعٍ بين تيمورلنك وبايزيد، منها:

١- لجأ أمراء العراق الَّذين استولى تيمور على بلادهم إلى بايزيد، كما لجأ إلى تيمور بعض أمراء آسيا الصُّغرى، وفي كلا الجانبين كان اللاجئون يحرِّضون من استجاروا به على شن الحرب ضدَّ الطرف الآخر.

٢- تشجيع النَّصارى لتيمورلنك، ودفعه للقضاء على بايزيد.

٣- الرَّسائل النَّاريَّة بين الطرفين، ففي إحدى الرَّسائل التي بعث بها تيمور إلى بايزيد أهانه ضمنيًّاً حين ذكَّره بغموض أصل أسرته، وعرض عليه العفو على اعتبار أنَّ آل عثمان قد قدموا خدماتٍ جليلة إلى الإسلام، مما جعل بايزيد يقبل تحديَّه[2]. إضافةً إلى أنَّ كلًّاً منهما يطمح لتوسيع دولته.

معركة أنقرة:

تقدَّم تيمورلنك بجيوشه، واحتلَّ (سيواس)، وأباد حاميتها التي كان يقودها الأمير أرطغرل ابن بايزيد، ثم التقى بالسلطان بايزيد قرب أنقرة في عام ٨٠٤هـ/١٤٠٢م، حيث زحف تيمور على رأس قوَّاتٍ جرارة، فاجتاح الجيوش

=«الحديد». كان تيمورلنك قائدًا عسكريًا فذًا قام بحملات توسعية شرسة أدّت إلى مقتل العديد من المدنيين وإلى اغتنام مجتمعات برمّتها. وكان تيمورلنك مسلماً.

١- في أصول التاريخ العثماني، ص (٥٦).

٢- المصدر السابق نفسه، ص (٥٧)

العثمانية فشتت جمعها وأباد معظم فرسانها، وبذلك انتصر المغول، ووقع بايزيد في الأسر، وظلَّ يعاني في أغلاله حتَّى وافاه الأجل في السنة التَّالية [1].

نصب لتيمورلنك في سمرقند

وهكذا وقعت هزيمة أنقرة بسبب اندفاعِ، وعجلة بايزيد، إذ لم يحسن اختيار المكان الذي نزل فيه جيشه؛ الذي لم يكن يزيد عن مئة وعشرين ألف مقاتل، بينما كان جيش خصمه لا يقل عن ثمانمئة ألف، ومات كثيرٌ من جنود بايزيد عطشاً لقلة الماء، حيث كان الوقت صيفاً شديد الحر، و لم يكد يلتقي الجيشان في أنقرة حتَّى فرَّ الجنود التتار؛ الَّذين كانوا في جيش بايزيد، وجنود الإمارات الآسيويَّة التي فتحها منذ عهدٍ قريب، وانضموا إلى جيش تيمورلنك، فلم يُجدِ بايزيد بعد ذلك ما أظهره هو وبقيَّة جيشه من الشجاعة، والاستماتة في القتال[2].

يضيف الدكتور علي حسون في أسباب هذه الهزيمة أنَّ الجنود العثمانيين لم تكن تملؤهم الحماسة، والاندفاع لهذه الحرب بسبب الأخوَّة الدينيَّة بينهم وبين

١- الدولة العثمانية، د. علي الصلابي، ص (٧٢).

٢- محمد الفاتح، د. سالم الرشيدي، ص (٣٥).

المغول الذين كان إيمانهم الباكر لم يرسخ بعد في قلوبهم ليحول دون وقوع هذه الحرب بين شعبين يجمعهم دينٌ واحد[1].

لقد فرحت الدول النَّصرانيَّة في الغرب بنصر تيمورلنك، وهزها الطرب لمصرع بايزيد، وما آلت إليه دولته من التفكك، وبعث ملوك إنجلترا وفرنسا وقشتالة إلى تيمور يهنئونه على ما أحرزه من النصر العظيم، واعتقدت أوربة أنَّها تخلصت إلى الأبد من الخطر العثماني الذي طالما روَّعها، وهددها[2].

١- تاريخ الدولة العثمانية، د. علي حسون، ص (٢١).

٢- محمد الفاتح، د. سالم الرشيدي، ص (٣٦).

الابتلاء قبل التمكين
(٨٠٦- ٨١٦هـ/ ١٤٠٣- ١٤١٣م)

تعرَّضت الدولة العثمانية لخطرٍ داخليٍ تمثل في نشوب حربٍ أهليةٍ في الدولة بين أبناء بايزيد على العرش، واستمرت هذه الحرب عشر سنوات[١].

فقد كان لبايزيد خمسة أبناء اشتركوا معه في القتال، أمَّا مصطفى؛ فقد ظُنَّ أنَّه قتل في المعركة، وأمَّا موسى؛ فقد أسر مع والده، ونجح الثلاثة الآخرون في الفرار، أمَّا أكبرهم سليمان؛ فقد ذهب إلى أدرنة، وأعلن نفسه سلطاناً هناك، وذهب عيسى إلى بورصة، وأعلن للنَّاس أنَّه خليفة أبيه، وأمَّا محمد، وهو أصغرهم، فقد انسحب مع بعض الجند إلى أماسيا[٢]، لتشتعل نار الحرب بين هؤلاء الأخوة الثلاثة يتنازعوا بينهم أشلاء هذه الدولة الممزقة، والأعداء يتربَّصون بهم من كل جانب، ثم أطلق تيمور الأمير موسى ليؤجج به نار الفتنة، ويزيدها شدةً، وأخذ يحرضهم على القتال، ويغري بعضهم ببعض، وبعد عام ارتحل تيمور بجيشه بعد أن أحرق الأخضر واليابس، وترك وراءه البلاد على أسوأ حال من الدمار والخراب[٣].

لقد كانت هذه المرحلة في تاريخ الدولة العثمانيَّة مرحلة اختبار وابتلاء، سبقت التَّمكين الفعلي المتمثل في فتح القسطنطينية، وهكذا جرت سنة الله تعالى ألا يمكن لأمة إلا بعد أن تمر بمراحل الاختبار المختلفة، وأن ينصهر معدنها في بوتقة الأحداث، فيميز الله الخبيث من الطيب، وهي سنةٌ جاريةٌ على الأمة

١- الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، ص (٤٣).

٢- مدينة في الشمال الشرقي من آسيا الصغرى.

٣- انظر: محمد الفاتح، ص (٣٦).

الإسلامية لا تتخلف، فقد شاء الله أن يبتلي المؤمنين، ويختبرهم، ليمحص إيمانهم ثم ليكون لهم التمكين في الأرض بعد ذلك [١].

وبعد هذا كله فقد صَمَدَ العثمانيِّون لمحنة أنقرة بالرغم ممَّا عانوه من خلافات داخلية إلى أن انفرد محمد الأول بالحكم في عام ١٤١٣م، وتمكَّن من لم شتات الأراضي التي سبق للدولة أن فقدتها [٢]. فقامت الدولة بعد كارثة أنقرة وبعثت من جديد من بين الأنقاض والأطلال، وانتعشت، وسرى في عروقها ماء الحياة، وروح الشريعة، واستأنفت سيرها إلى الأمام في عزمٍ، وإصرارٍ حيَّر الأعداء، والأصدقاء[٣].

إن نهوض الدولة من كارثة أنقرة يرجع إلى منهجها الرباني الذي سارت عليه، حيث جعل من العثمانيين أمةً متفوقةً في جانبها الإيماني والسلوكي والجهادي، وبفضل من الله حافظ العثمانيون على حماستهم الدينية، وأخلاقهم الكريمة.

١- الدولة العثمانية، د. علي الصلابي، ص (٧٤).

٢- في أصول التاريخ العثماني، ص (٦١).

٣- انظر: محمد الفاتح، ص (٣٧).

إذا لم تفشل، فلن تعمل بجد

(٥) محمّد الأول ابن با يزيد
(٨١٦-٨٢٤هـ)، (١٤١٣-١٤٢١م)

ولد السلطان محمد الأول عام (٧٨١هـ / ١٣٧٩م)[١]، وتولّى أمر الأمَّة بعد وفاة والده بايزيد، وعرف في التاريخ بمحمد جلبي .كان متوسط القامة، مستدير الوجه، أبيض البشرة، يمارس المصارعة، ويسحب أقوى أوتار الأقواس، اشترك أثناء حكمه في ٢٤ حرباً، وأصيب بأربعين جرحاً[٢].

سياسته الداخلية:

استطاع السلطان محمد جلبي أن يقضي على الحرب الأهليَّة بسبب ما أوتي من الحزم، والكياسة، وتغلب على أخوته واحداً واحداً حتَّى خلص له الأمر، وتفرَّد بالسلطان، وقضى سني حكمه الثَّماني في إعادة بناء الدولة، وتوطيد أركانها[٣].

فقد استعمل السلطان محمد سياسة الحزم مع الحلم في معاملة من قهرهم ممن شقَّ عصا طاعة الدولة، وكانت سياسته تهدف إلى إعادة بناء الدولة، وتقويتها من الدَّاخل، ولذلك سالم إمبراطور القسطنطينية، وحالفه، وأعاد إليه بعض المدن،

١- انظر: أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ (الدَّولة العثمانية) ص (٣٣).

٢- انظر السلاطين العثمانيون، ص (٤١).

٣- انظر: محمد الفاتح، ص (٣٧).

ثمَّ صالح البندقية بعد هزيمة أسطوله عند غاليبولي سنة ٨١٨هـ، وقمع الفتن والثورات في آسيا وأخضع بعض الإمارات الآسيوية التي أحياها تيمور، فدانت له بالطاعة والولاء[١].

وفي عهده استغلت اليهوديَّة ضعف الدولة التي كانت لا تزال تئن من جراحها السابقة، فدسَّت بين صفوف الناس شخصاً دعي الشيخ بدر الدين السيماوي، كان قد شَغِلَ منصِبَاً جيداً في الدولة متستراً بالتَّدين والعلم، فدعا لآراءٍ هدَّامةٍ من أعمال اليهود المعروفة، وبات يشكل بعض الخطر على كيان الدولة، فتمكَّن السلطان من قتله وأخمدت دعوته [٢].

وفاة السلطان محمد الأول وبعض صفاته:

كان محباً للشعر، والأدب، وقيل: هو أول سلطانٍ عثمانيٍّ أرسل الهديَّة السنويَّة إلى أمير مكة التي يطلق عليها اسم الصُّرَّة، وهي عبارةٌ على قدرٍ معينٍ من النقود ترسل إلى الأمير لتوزيعها على فقراء مكة والمدينة[٣].

لقد أحبَّ الشعب العثماني السلطان محمد الأول، وأطلقوا عليه لقب (بهلوان) ومعناه البطل وذلك بسبب نشاطه الجم، وأعماله العظيمة، وعبقريَّته الفذة؛ التي قاد من خلالها الدولة العثمانيَّة إلى بر الأمان[٤]. توفي في أدرنة، وعمره ٤٣ سنة، ودفن في مدينة بورصة.

١- انظر: محمد الفاتح، ص (٣٧).

٢- تاريخ الدولة العثمانية، د. علي حسون، ص (٢٢).

٣- انظر: تاريخ الدولة العلية العثمانيَّة، ص (١٥٢).

٤- الدولة العثمانية، د. علي الصلابي، ص (٨٠).

(٦) مراد الثاني ابن محمّد الأول
(٨٢٤-٨٥٥هـ)، (١٤٢١-١٤٥١م)

تولَّى السلطان مراد الثاني أمر الدَّولة بعد وفاة أبيه محمد وكان عمره لا يزيد على ثماني عشرة سنة، وكان محباً للجهاد في سبيل الله، والدَّعوة إلى الإسلام في ربوع أوربة [١].

كان يحب حياة الهدوء والسلم، ولكنَّه فاعلٌ ونشطٌ في الشدائد وعندما تقتضي الحاجة، أدار شؤون البلاد أثناء سني حكمه التي امتدت إلى ما ينوف عن ثلث قرن بحكمة وفخر، فكان موضع اعتزازٍ كبيرٍ جداً[٢].

فتوحاته والتحالفات الصليبية ضده:

ألبانيا:

استطاع العثمانيون في عهده أن يفتحوا ألبانيا[٣] عام (٨٣٤هـ/١٤٣١م)، حيث ركَّزوا هجومهم على الجزء الجنوبي من البلاد، أمَّا في شمال ألبانيا فقد واجهوا فيه بعض الصُّعوبات، حيث كانت دول أوربا تقف خلف الألبان

١- انظر: أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ (الدولة العثمانية)، ص (٣٨).

٢- تاريخ الدولة العثمانية، علي حسون، ص (٢٨).

٣- ألبانيا (بالألبانية: Shqip وتنطق: شقيب) هي إحدى دول البلقان الواقعة في جنوب أوروبا. يحدها من الشمال صربيا والجبل الأسود ومن الشرق جمهورية مقدونيا واليونان ومن الجنوب اليونان مجدداً ومن الغرب البحر الأدرياتيكي.

وتدعمهم، ولاسيَّما حكومة البندقيَّة التي كانت تدرك خطورة الفتح العثماني لهذا الإقليم المهم بشاطئيه، وموانئه البحرية التي تربط البندقية بحوض البحر المتوسط[1].

المجر وتحالفٌ صليبي:

استطاع العثمانيون في عام (٨٤٢هـ/١٤٣٨م) أن يهزموا المجريين، ويأسروا منهم سبعين ألف جندي، وأن يستولوا على بعض المواقع، ثم تقدَّم السلطان مراد لفتح بلغراد[2] عاصمة الصرب، ولكنَّه أخفق في محاولته؛ إذ سرعان ما تكوَّن حِلفٌ صليبيٌ كبير باركه البابا، ضمَّ عدداً هائلاً من الدول النصرانيَّة، فكان هدف هذا الحلف طرد العثمانيين من أوربة كلها، وأعطيت القيادة إلى قائدٍ مجري هو جان هونيادي[3]، وكان النَّصر في هذه المعركة من نصيب القوات الصليبية، فاضطر العثمانيون لطلب الصلح الذي عقد لمدة عشر سنوات[4].

زهده بالسلطة وتنازله عنها:

حين فرغ مراد من عقد الصلح مع أعدائه الأوربيين، عاد إلى الأناضول، ليُفجِعَ بموت ابنه الأمير علاء، فاشتدَّ حزنه عليه، وزهد في الدنيا والملك، ونزل

١- انظر: الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، ص (٤٦).

٢- بلجراد (بالصربية:Beograd) هي عاصمة صربيا وأكبر مدنها. وتعد واحدة من أقدم مدن أوروبا على الإطلاق؛ إذ يعود تاريخ تأسيسها إلى القرن الثالث قبل الميلاد . وبلغراد هي آخر بقعة مسيحية دانت للمسلمين العثمانيين في البلقان.

٣- جان هونيادي: يذكر التاريخ الفرنسي أنه ولد سنة ١٣٨٧ ومات سنة ١٤٥٦م، عينه لادسلاس ملك بولونيا والمجر حاكماً على إقليم ترانسافانيا، وهو من أقاليم مملكة النمسا التي تبعت مدةً للدولة العثمانية، واشتهر جان بمحاربة العثمانيين، وكانت وفاته إثر جراحٍ أصابته أثناء دفاعه عن مدينة بلغراد عند محاصرة السلطان محمد الفاتح لها.

٤- الدولة العثمانية، د. الصلابي، ص (٨٣).

عن السلطنة لابنه محمد الذي كان في الرابعة عشرة من عمره؛ ولصغر سنه أحاطه والده ببعض أهل الرأي والنظر من رجال دولته، ثم ذهب إلى مغنيسيا[1] ليقضي بقية حياته في عزلة، وطمأنينة، ويتفرغ إلى عبادة الله، والتَّأمل في ملكوته بعد أن اطمأن إلى استتباب الأمن في أرجاء دولته[2].

إلا أنَّ ذلك لم يدم طويلاً فقد قام الكاردينال سيزاريني وبعض أعوانه بالدَّعوة إلى نقض العهود مع العثمانيين وطردهم من أوربة، ولاسيّما أن العرش العثماني قد تُرك لفتى صغير لا خبرة له، ولا خطر منه[3].

فلبت دول أوروبا نداء الكاردينال سيزاريني، وزحفوا نحو الدولة العثمانيَّة، فلما سمع المسلمون في أدرنة بحركة الصليبيين، انتابهم الفزع، والرُّعب، فكتب السلطان محمد الثاني إلى والده يطلب منه العودة ليتربع على عرش السلطنة تحسبا لوقوع معركة مع المجر، إلا أنَّ مراد رفض هذا الطلب، فأثار هذا الرد غضب السلطان محمد الثاني فعاد وكتب إلى والده يقول:

«لو كنت أنت السلطان بحق، فارجع وسر بجيشك إلى المعركة. وإن كنت تراني أنا السلطان، فإني آمرك بالمجيء وقيادة جيشي في المعركة».

وبناءً على هذه الرسالة خرج السلطان المجاهد من خلوته ليقود جيوش العثمانيين ضدَّ الخطر الصليبي، واستطاع مراد أن يتفق مع أسطول جنوه[4] لينقل

١- مدينة في غربي تركيا إلى الشمال الشرقي من أزمير.

٢- محمد الفاتح، ص (٤٢،٤٣).

٣- المصدر السابق نفسه، ص (٤٣).

٤- جنوة (بالإيطالية Genova، بالإنكليزية Genoa) مدينة وميناء بحري شمال إيطاليا. وهي حاضرة بحرية، ومدينة ذات تاريخ مجيد، وتقاليد عريقة وقوية متعلقة بالثقافة البحرية ليس بمنطقة البحر المتوسط فحسب.

أربعين ألفاً من الجيش العثمانيِّ من آسيا إلى أوربة تحت سمع الأسطول الصليبي، وبصره في مقابل دينار لكل جندي[1].

وفي اليوم التَّالي نشبت المعركة بين الجيشين وكانت عنيفةً حاميةً، ووضع السلطان مراد المعاهدة التي نقضها أعداؤها على رأس رمح ليشهدهم، ويشهد السماء والأرض على الغدر والعدوان، وليزيد حماس جنده[2].

وابتدئ القتال وكاد يكون النصر للنصارى لولا حماسة العثمانيين واستبسالهم بالقتال في وجه النصارى، والتقى الملك ((لاديسلاس)) مع السلطان مراد وجهاً لوجه، واقتتلا، ودارت بينهما معركةٌ رهيبةٌ تمكَّنَ فيها السلطان مراد من قتل الملك المجري، حيث عاجله بضربة قوية من رمحه أسقطته من على ظهر جواده[3].

كانت هذه المعركة في سهول قوصوة في ٨٥٢هـ / ١٤٤٨م، وهو نصر كوسوفو الثاني، حيث استمر القتال فيها ثلاثة أيام، وانتهت بفوز ساحق للعثمانيين، وقد أخرجت هذه المعركة بلاد المجر عشر سنواتٍ على الأقل من الدول التي تستطيع النهوض بعمليات حربية هجومية ضد العثمانيين[4].

لم يفارق السلطان مراد الزهد في الدنيا، والملك، فنزل عن العرش مرة أخرى لابنه محمد، وعاد إلى عزلته في مغنيسيا.

لم يذكر لنا التاريخ أن أحداً من الملوك أو الأمراء نزل عن العرش مرتين غير السلطان مراد.

١- الدولة العثمانية، د. الصلابي، ص(٨٥).

٢- المصدر السابق نفسه، ص (٤٥).

٣- محمد الفاتح، د. عبد السلام عبد العزيز، ص(٢٢).

٤- انظر: الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، ص (٤٧).

وما إن وصلها حتَّى ثارت الإنكشارية على ابنه محمد في أدرنة، وتمردوا وأفسدوا، فخاف بعض رجال الدولة أن يستفحل الأمر، ويتفاقم الشر، فبعثوا إلى السلطان مراد يستقدمونه ليتولَّى الأمر بنفسه، فجاء وقبض على زمام الأمور، وخضعت له الإنكشارية، وهكذا بقي السلطان مراد على العرش العثماني إلى آخر يوم في حياته، التي قضاها في الغزو والفتح[1].

وفي عهده فتحت مدينة سالونيك[2] عام (٨٣٣هـ/١٤٣١م) وأصبحت جزءاً لا يتجزَّأ من الدولة[3].

وفاة السلطان مراد وبعض صفاته:

كان السلطان مراد يرسل لأهالي الحرمين الشريفين، وبيت المقدس من خاصة ماله في كل عام ثلاثة آلاف وخمسمئة دينار، وكان يُعنى بشأن العلم والعلماء[4] حيث حوَّل قصره إلى نوع من الأكاديمية العلمية، ووصل به الأمر أن كان الشعراء يرافقونه في جهاده[5].

كانت وفاته في أدرنة عن عمرٍ يناهز ٤٧ عاماً، وبناءً على وصيَّته- رحمه الله- دفن بجانب جامع مرادية في بورصة، وأوصى بأن لا يبنى على قبره شيءٌ، وأن يُعمَل أماكنٌ في جوانب القبر يجلس فيها الحفَّاظ لقراءة القرآن الكريم، وأن يدفن في يوم الجمعة، فنفذت وصيَّته[6].

١- محمد الفاتح، ص (٤٧).

٢- تعتبر سالونيك ثاني أكبر مركز اقتصادي، صناعي، تجاري وسياسي في اليونان، ومركز مواصلات مهم في جنوب شرق أوروبة، وهي مركز تعليمي وثقافي هام في منطقة البلقان. تحتوي المدينة على العديد من الصروح التي تعكس تاريخها البيزنطي والعثماني.

٣- الدولة العثمانية، د. الصلابي، ص (٨٢).

٤- انظر: تاريخ سلاطين آل عثمان للقرماني، ص (٢٥).

٥- العثمانيون في التاريخ والحضارة، ص (٢٤٦).

٦- السلاطين العثمانيون، ص (٤٣)

يجب أن تثق بنفسك.. وإذا لم تثق بنفسك فمن ذا الذي سيثق بك!

(٧) محمّد الثاني ابن مراد الثاني (٨٥٥- ٨٨٦هـ)، (١٤٥١- ١٤٨١م)

ولد السلطان محمد الفاتح في ٢٦ رجب من عام ٨٣٣هـ، الموافق ٢٠ نيسان ١٤٢٩ م، وهو السلطان السابع في سلسلة آل عثمان[١].

ولقد انتهج النَّهج الذي سار عليه والده، وأجداده في الفتوحات، واهتمَّ كثيراً بالأمور الماليَّة فعمل على تحديد موارد الدولة، وطرق الصرف منها على نحوٍ يمنع الإسراف والبذخ، وكذلك ركَّز على تطوير كتائب الجيش، وأعاد تنظيمها، ووضع سجلاتٍ خاصة بالجند، وزاد من مرتباتهم، وأمدهم بأحدث الأسلحة المتوافرة في ذلك العصر، وطوَّر البلاط العثماني، وأمدَّ رجاله بالخبرات الإداريَّة، والعسكريَّة الجيدة مما أسهم في استقرار الدولة، ودفعها إلى الأمام، وبعد أن قطع أشواطاً مثمرةً في الإصلاح الدَّاخلي، تطلَّع إلى المناطق المسيحيَّة في أوربة لفتحها، ونشر الإسلام فيها[٢].

لا بد من كلمة:

عندما قرأت سيرة هذا السلطان العثماني أعجبت به كثيراً، وانطلقت أحدث أصحابي وأقاربي عنه؛ فإذ بي أتفاجأ بثقافتهم حول محمد الفاتح، إذ إنَّ

١- تاريخ الدولة العثمانية، د. علي حسون، ص (٣١).

٢- انظر قيام الدَّولة العثمانيَّة، ص (٤٣).

أكثرهم لا يعلم أنَّه سلطانٌ عثماني، بل إنَّ ما كاد يفقدني صوابي هو أحد أصدقائي- جامعيّ- عندما سألته: «ماذا تعلم عن محمد الفاتح» فأجابني بثقة تامَّة: «كان نجاراً مسلماً يعمل في القسطنطينية فسمع يوماً من شيخه حديث رسول الله ﷺ عن فاتح القسطنطينية، فأراد أن يكون هو ذلك الفاتح، وفعلاً نجح ذلك النجار بفتح المدينة التي عجز أمامها خلفاء المسلمين» فما رددت عليه بحرف وقلت: «حسبي الله ونعم الوكيل».

وها هيَ البداية:

نبدأ حديثنا عن هذا السلطانِ العثماني بقصة ربما إذا ذُكِرت وحدها كَفَت فضول المتلهفين لمعرفة هذا الفاتح المِغوار؛ ففي إحدى المعارك في بلاد البلقان تعرَّض الجيش العثمانيُّ لكمينٍ من قبل زعيم البغدان[1] (أستفان)، حيث تخفَّى مع جيشه خلف الأشجارِ الكثيفةِ المتلاصقة، وبينما المسلمون بجانب تلك الأشجار انهمرت عليهم نيرانُ المدافعِ الشديدة، فانبطح الجنود على وجوههم، وكاد الاضطراب يسود صفوف الجيش لولا أن سارع السلطان محمد، وتباعد عن مرمى المدافع، وعنَّفَ رئيس الإنكشارية على تخاذلِ جنُدِه، ثم صاح فيهم:

«أيها الغزاة المجاهدون، كونوا جنود الله، ولتَكُنْ فيكم الحميَّة الإسلاميَّة».

وأمسك بالتُّرس، واستلَّ سيفه، وركض بحصانه، واندفع إلى الأمام لا يلوي على شيء، فألهَبَ بذلك نار الحماس في جنده، فانطلقوا وراءه واقتحموا الغابةَ على من فيها، ونشب قتال عنيف بالسيوف استمر من الضحى إلى الأصيل[2].

١- مولدافيا (اسمها القديم هو بغدان نسبة إلى الأسرة الحاكمة) دولة أوروبية ذات نظام جمهوري، تقع شرقي أوروبا بين أوكرانيا ورومانيا. وتعتبر مولدوفا من أصغر جمهوريات الاتحاد السوفيتي السابق.

٢- السلطان محمد الفاتح، ص (١٠١، ٢٤٦، ٢٤٧).

ومما يذكر أيضاً أنَّه عندما طلب منه الإمبراطور قسطنطين الصُّلحَ أثناء حصاره للقسطنطينية، ردَّ عليه: «عن قريبٍ سيكون لي في القسطنطينية عرشٌ، أو يكون لي فيها قبر»[1].

وقفةٌ مع إنجازاته الحضارية:

١- اهتمامه بالمدارس والمعاهد:

قام السلطان محمد بإنشاء المدارس، ورتَّبها على درجاتٍ، ووضع لها المناهج، ونظام الامتحانات، وكان السلطان يتابع هذه الأمور، ويشرف عليها، ويزور المدارس بين الحين والحين. وقد أنشأ بجانب مسجده الذي بناه بالقسطنطينية ثماني مدارس، بالإضافة لإنشاء مكتبةٍ خاصة يشترط بالقائم على أمرها أن يكون عالماً بالكتب وأسماء المؤلِّفين، وكان أن أُلحِقَتْ بهذه المدارس مساكنُ للطلبة، ينامون فيها ويأكلون فيها طعامهم، وخصصت لهم منحةٌ ماليةٌ شهرية[2].

٢- اهتمامه بالطب والمستشفيات:

كَثُرَ العُمرانُ وانتشر في أرجاء الدولة في عهده، وكان الاهتمام الأكبر بدور الشفاء، ووُضِعَ لها نظامٌ مثالي في غاية الروعة، فقد كان الفاتح يعهد بكل دارٍ من هذه الدُّور إلى طبيبين من حذَّاق الأطباء من أي جنسٍ كان، ويشترط في جميع المشتغلين بالمستشفى أن يكونوا من ذوي القناعة، والشفقة، ويجب على الأطباء أن يزوروا المرضى مرَّتين في اليوم وألا تُصرَفَ الأدويةُ للمرضى إلا بعد التدقيق من إعدادها، بل كان يشترط في طبَّاخ المستشفى أن يكون عارفاً بطهي الأطعمة التي توافق المرضى، وكان العلاج والأدوية في هذه المستشفيات بالمجان ويدخلها

١- انظر: الفتوح الإسلامية عبر العصور، ص (٣٧٦).

٢- انظر: محمد الفاتح، ص (٣٨٤،٣٨٥).

جميع النَّاس دون تمييزٍ بين أجناسهم وأديانهم[1].

٣- اهتمامه بالتنظيمات الإدارية:

شكَّل السلطان محمد لجنةً من خِيَارِ العلماء لتُشرِفَ على وضع (قانون نامه) المستمد من الشريعة الإسلامية، وجعله أساساً لحكم دولته، وكان هذا القانون مكوناً من ثلاثة أبواب، يتعلق بمناصبِ الموظفين، وببعض التقاليد، وما يجب أن يُتخَذَ من التشريفات والاحتفالات السلطانية، ويقرر العقوبات والغرامات، ونصَّ صراحةً على جعل الدولة حكومةً إسلاميةً قائمةً على تفوق العنصر الإسلامي أيَّاً كان أصله وجنسه[2].

٤- اهتمامه بالجيش، والبحرية:

لقد تميَّز عصر السلطان محمد الفاتح بقوة الجيش البشرية، وتفوقه العددي، وبإنشاءاتٍ عسكرية عديدة، فقد أقام دور الصناعةِ العسكرية لسدِ احتياجات الجيش من الملابس والدروع ومصانع الذخيرة، وأقام القلاع والحصون في المواقعِ ذاتِ الأهمية العسكريَّة، فأحدث تشكيلاتٌ عسكريةٌ متنوعة في تمام الدقة، وحُسنِ التنظيم من فرسان، ومشاة، ومدفعية، وفرق مساعدة، تَمُدُّ القوات المحاربة بما تحتاجه من غذاءٍ، وإعدادِ صناديق الذخيرةِ حتى ميادين القتال.

وكان هناك صنفٌ من الجنود يسمى ((لغمجية)) وظيفته الحفر للألغام، وحفر الأنفاق تحت الأرض أثناء محاصرة القلاع، وبذلك تطوَّرت الجامعة العسكرية زمن الفاتح، وأصبحت تخرِّج الدفعات المتتالية من المهندسين والأطباء، وعلماء المساحات، وتَمُدُّ الجيش بالفنيين المتخصصين. وعندما نطالع كتاب

١- انظر: محمد الفاتح، ص (٤١٣).

٢- انظر: محمد الفاتح، ص (١٥٤).

((حقائق الأخبار عن دول البحار)) لمؤلفه إسماعيل سرهنك، نلاحظ اهتمام السلطان محمد الفاتح بالبحرية العثمانية، وإنَّه كان اهتماماً بالغاً استحق معه أن يعده المؤرخون مؤسس الأسطول البحري العثماني.

٥- اهتمامه بشؤون رعيته:

بالرغمِ من اشتغاله بالجهاد، إلا أنّه كان يتتبع كلَّ ما يجري في أرجاء دولته بيقظة، واهتمام، كما ساعده على معرفة أحوال الناس جهاز أمن الدولة الذي كان يجمع المعلومات، والأخبار التي لها علاقةٌ بالسلطنة، وتُرفَعُ إلى السلطان الذي كان يحرص على دوام المباشرة لأحوال الرعية، وتفقد أمورها.

أهميةُ القسطنطينية:

تأتي أهمية القسطنطينية نظراً لموقعها الجغرافي عند نقطة اتصال آسيا بأوربا عن طريق مضيق البوسفور، فهي عقدة المواصلات وطريق الملاحة، وقد قال نابليون مرَّة: «لو كانت الدنيا مملكة واحدة لكانت القسطنطينية أصلح المدن لتكون عاصمة لها».

ولهذه المدينة أهميةٌ خاصةٌ لدى المسلمين، وقد وردت البشارة النبوية الشريفة بفتحها فجاء في الحديث الصحيح: «لتفتحن القسطنطينية، فلنعم الأمير أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش».

ولقد حاول المسلمون فتحها عدَّة مرات؛ أولها زمن معاوية بن أبي سفيان الخليفة الأموي وآخرها كان زمن بايزيد السلطان العثماني.

﴿وأعدوا لهم ما استطعتم﴾:

بذل السلطان محمد الثاني جهوده المختلفة للتخطيط، والترتيب لفتح القسطنطينية، وبذل في ذلك جهداً كبيرةً في تقوية الجيش العثماني **بالقوى**

البشرية حتى وصل تعداده إلى قرابة ربع مليون مجاهد[١]، وقد اعتنى بإقامة قلعة (روملي حصار) في الجانب الأوربِّي على مضيق البوسفور في أضيق نقطةٍ منه مقابلَ القلعة التي أُسست في عهد السلطان بايزيد في البر الآسيوي، وقد حاول الإمبراطور البيزنطي منع الفاتح من بنائها بأن عرض عليه الأموال والتنازلاتِ العديدة، ولكنَّ ذلك لم ينل من عزيمة الفاتح، واكتمل بناء القلعة التي وصل ارتفاعها إلى ٨٢ متراً، وأصبحت القلعتان متقابلتين ولا يفصل بينهما إلا ٦٦٠م؛ تتحكمانِ في عبور السفن من شرق البوسفور إلى غربه، وتستطيع نيرانُ مدافعهما منع أيِّ سفينةٍ من الوصول إلى القسطنطينية وتقديم المساعدة لها[٢].

أمَّا **الأسلحة الهجومية** فقد اعتنى السلطان عنايةً خاصةً بالمدافع، حيث أحضر مهندساً مجرياً يدعى ((أوربان)) الذي كان بارعاً في صناعة المدافع، فأحسن السلطان استقباله، ووفَّر له جميع الإمكانيات المالية، والبشرية، وقد تمكن هذا المهندس من تصميم وتنفيذ العديد من المدافع الضَّخمة وعلى رأسها المدفع السلطاني المشهور[٣].

وأمَّا **السفن البحرية** فقد ذُكِرَ أنَّ السفن التي أعدَّت لهذا الأمر بلغت أكثر من أربعمئة سفينة [٤].

شدة تحصين القسطنطينية:

كانت القسطنطينية محاطةً بالمياه البحريَّة من ثلاث جهات، مضيق البوسفور، وبحر مرمرة، والقرن الذهبي، بالإضافة إلى ذلك فإن خطين من الأسوار

١- انظر: تاريخ الدولة العلية العثمانية ،محمد فريد بك، ص (١٦١).

٢- انظر: سلاطين آل عثمان، ص (٢٦).

٣- انظر: الفتوح الإسلامية عبر العصور، ص (٣٦١).

٤- انظر: محمد الفاتح، ص (٩٠)، د. سالم الرشيدي.

كانت تحيط بها من الناحية البرية، وكان بين السورين فضاءٌ يبلغ عرضه ٦٠ قدماً، ويرتفع السور الداخلي منها ٤٠ قدماً، وعليه أبراج يصل ارتفاعها إلى ٦٠ قدماً، وأمَّا السور الخارجي فيبلغ ارتفاعه قرابة ٢٥ قدماً، وعليه أبراجٌ موزعة مليئة بالجند.

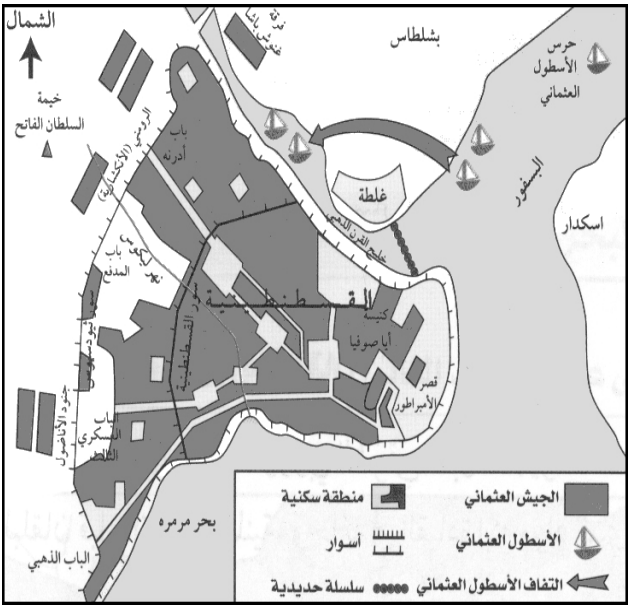

وبالنتيجة فإنَّ المدينة من النَّاحية العسكرية تعد من أفضل مدن العالم تحصيناً، لما تمتلكه من أسوارٍ وأبراج يصعب اختراقها.

خطة المعركة:

بدأ السلطان أعماله بتمهيد الطريق بين أدرنة والقسطنطينية؛ لكي تكون صالحةً لجرِّ المدافع العملاقة خلالها، فتحركت المدافع في مدَّة شهرين، حيث تمَّت حمايتها بقسمٍ من الجيش، ووصلت الجنود العثمانية يقودها الفاتح بنفسه إلى مشارف القسطنطينية في ٢٦ ربيع الأول ٨٥٧هـ الموافق ١٤٥٣م[1].

١- انظر: سلاطين آل عثمان، ص (٢٤،٢٥).

وفي اليوم التالي قام السلطان بتوزيع جيشه البريِّ أمام الأسوار الخارجية للمدينة، مشكِّلاً ثلاثة أقسام رئيسة، تمكنت من إحكام الحصار البري حول مختلف الجهات، كما وضع الفاتح جيوشاً احتياطيَّةً خلف الجيوش الرئيسة، وعمل على نصب المدافع أمام الأسوار، ومن أهمها المدفع السلطاني العملاق، وفي الوقت نفسه انتشرت السفن العثمانيَّة في المياه المحيطة بالمدينة، إلا أنها لم تستطع الوصول إلى خليج القرن الذهبي بسبب وجود السلسلة الضخمة التي تمنع وتدمر كل سفينة تحاول الدنو منه[1].

وبدأت المعركة:

كان الجيش البيزنطي على أهبة الاستعداد لمحاربة العثمانيين، فقد بذلوا كل جهدهم في الدفاع عن القسطنطينية، ووزعوا الجنود على الأسوار، وأحكموا من التَّحصينات ، في الوقت الذي لم تنقطع فيه المساعداتُ المسيحيَّة من أوربة، حيث وصلت إمداداتٌ من جنوة مكوَّنةٌ من خمس سفنٍ، يقودها القائد الجنوي ((جستنيان)) يرافقه سبعمائة مقاتل متطوعٍ من دولٍ أوربيةٍ متعددة، واستطاعت سفنهم أن تصل إلى القسطنطينية بعد مواجهات عديدة مع السفن العثمانية، فكان لوصول هذه السفن أثرٌ كبيرٌ في رفع معنويات البيزنطيين، وكان القتال عنيفاً على الجبهتين، وفتحت أبواب الشهادة ليفوز بها عدد كبير من العثمانيين، ولا سيَّما من الأفراد الموكَّلين بالاقتراب من الأبواب الرئيسة[2].

كان الحصار العثماني لا يزال ناقصاً ببقاء خليج القرن الذهبي في أيدي البحرية البيزنطيَّة، ومع ذلك فإنَّ الهجوم العثمانيِّ كان مستمراً دون هوادة، حيث

١- انظر: العثمانيون والبلقان، ص (٨٩).

٢- انظر: الدولة العثمانية، د. الصلابي، ص (٩٩).

أظهر جنود الإنكشارية شجاعةً فائقةً، وبسالةً نادرةً، فكانوا يُقدِمونَ على الموت دون خوفٍ في أعقاب كل قصف مدفعي، وفي يوم ١٨ أبريل[١] تمكنت المدافع العثمانية من فتح ثغرةٍ في الأسوار البيزنطية عند وادي ((ليكوس)) في الجزء الغربي من الأسوار، فاندفع إليها الجنود العثمانيون بكل بسالةٍ محاولين اقتحام المدينة من تلك الثغرة، ولكنَّ المدافعين عن المدينة بقيادة ((جستنيان)) استماتوا في الدفاع عن الثغرة، ودَفعِ العثمانيين عنها، واشتدَّ القتال بين الطرفين، وكثرت السهام، والقذائف على الجنود المسلمين، ومع حلول الظلام أصدر الفاتح أوامره بالانسحاب بعد أن أثاروا الرعب في قلوب أعدائهم[٢].

أما على الجانب البحري فقد كانت السفن العثمانية تبذل كلَّ جهدها محاولةً السيطرة على المضيق الذهبي؛ حيث قام البيزنطيون بسد مداخل ميناء القسطنطينية بسلاسل حديدية غليظة حالت بين السفن العثمانية والوصول إلى القرن الذهبي، بل دمرت كل سفينة حاولت الدنو والاقتراب منه ، إلا أن الأسطول العثماني نجح على الرغم من ذلك في الاستيلاء على جزر الأمراء في بحر مرمرة[٣]. ويذكر أنَّ السلطان قد أرسل إلى قائد الأسطول البحري بالطه أوغلي[٤] يقول له:

١- انظر: الفتوح الإسلامية عبر العصور، ص (٣٦٧).

٢- انظر: محمد الفاتح، عبد السلام فهمي، ص (١٢٣).

٣- بحر مرمرة: بحر داخلي يربط البحر الأسود ببحر إيجة ويفصل الجزء الآسيوي لتركيا عن جزئها الأوروبي. يتصل بحر مرمرة بالبحر الأسود عن طريق مضيق البوسفور وببحر إيجة عن طريق مضيق الدردنيل.

٤- أوغلي: معناها الابن؛ حيث إنه لم يكن للعثمانيين أسماء أسر أي ألقاب فإنهم كانوا ينتسبون إلى آبائهم.

«إمَّا أن تستولي على سفن العدو، وإمَّا أن تغرقها، وإذا لم توفق في ذلك؛ فلا ترجع إلينا حياً»[1].

فحدثت معركةٌ عنيفةٌ بين الطَّرفين، إلا أنَّ النصر لم يكن حليفَ الأسطولِ العثماني، وعاد ذلك القائد إلى مقره، فغضب منه الفاتح، وعزله من مهامّه، واتَّهمه بالجبن، إلا أنَّ بالطه أوغلي تأثَّر وقال له: «إني أستقبلُ الموتَ بجنانٍ ثابت، ولكنْ يؤلمني أنْ أموت وأنا متَّهمٌ بمثل هذه التهمة لقد قاتلت أنا ورجالي بكل ما كان في وسعنا من حيلةٍ، وقوَّة، ورفع طرف عمامته عن عينه المصابة»[2].

لم يكن كلُّ رجال الفاتح ذوي هممٍ عالية مثل هذا القائد البطل، فقد كان للهزائم البحريَّة للأسطول العثماني دورٌ كبيرٌ في محاولة بعض مستشاري السلطان، وعلى رأسهم الصدر الأعظم خليل باشا[3]، من إقناعه بالعدول عن الاستيلاء على القسطنطينية، والرضا بمصالحة أهلها دون السيطرة عليها، ومن ثمَّ رفعِ الحصار عنها، ولكنَّ السلطان أصرَّ على محاولة الفتح، واستمرَّ في قصف دفعاتِ المدينة بالمدافعِ من كل جانب، وفي الوقت نفسه كان يفكر بجديةٍ في إدخال السفن الإسلامية إلى القرن الذهبي، وذلك لأنَّ الأسوار من جهته كانت متهاويةً، مما يسهلُ اقتحامها أو ربما على الأقل يخفف من شدة دفاع البيزنطيين على الأطراف الأخرى[4].

١- انظر، محمد الفاتح، للرشيدي، ص (١٠١).

٢- انظر: مواقف حاسمة، محمد عبد الله عنان، ص (١٨٠)، محمد الفاتح، للرشيدي، ص(١٠٣).

٣- كان السلطان محمد قد أمر بحبسه لاتهامه أثناء حصار القسطنطينية بالتعامل مع العدو أو تلقيه رشوةً منهم لفضح تحركات الجيش العثماني، فحُبس لمدة أربعين يوماً، ثم حُكم عليه بالإعدام فأعدم.

٤- انظر: الفتوحات الإسلامية عبر العصور، ص (٣٦٩).

وبناءً على هذا لمعت في عقله فكرة حربية عبقرية لم يحدث مثلها في ذلك الزمان، مما أبهر المؤرخين بعبقريته، وحيَّر الأعداء بعزيمته؛ وهي نقل السفن من مرساها في بشكطاش[1] إلى القرن الذهبي، وذلك بجرها على الطريق البري الواقع بين الميناءين، تجنباً للمواجهةِ العنيفةِ التي تتلقاها السفنُ التي تحاول العبور إلى القرن الذهبي، وبذلك يكتمل الحصار، وقد كانت المسافة بين الميناءين نحو ثلاثة أميال، و لم تكن أرضاً مبسوطةً سهلةً، بل وهاداً وتلالاً غير ممهدة.

جمع السلطان محمد أركان حربه، وعرض عليهم فكرته، التي نالت إعجابهم[2]، فأمر السلطان ببدء الخطة فمُهِدت الأرض، وسوِّيت في ساعات قليلة، وأُتِيَ بألواح من الخشب دُهِنَت بالزيت، والشحم، ثم وضعت على الطريق الممهد بطريقة يَسهُلُ بها انزلاق السفن، وجرها، وكان أصعب جزء من المشروع هو نقل السفن على انحدار التلال المرتفعة، إلا أنَّه بصفةٍ عامة كانت السفن العثمانية صغيرة الحجم، خفيفة الوزن[3].

وجُرَّت السفن مسافة ثلاثة أميال، حتى وصلت إلى نقطةٍ آمنةٍ، فأنزلت في القرن الذهبي، وتمكن العثمانيون في تلك الليلة من سحب أكثر من سبعين سفينة، وإنزالها هناك على حين غفلةٍ من العدو بطريقةٍ لم يسبق أحدٌ أن قام بها قبل السلطان محمد، حيث أشرف بنفسه على العملية التي جرت في الليل بعيداً عن أنظار العدو، ومراقبته[4].

عبر أحد المؤرخين البيزنطيين عن عجبهم من هذا العمل فقال:

١- بشكطاش: حي من أحياء استانبول على مضيق البوسفور وفيه قصر يلدز.

٢- الدولة العثمانية، د. الصلابي، ص (١٠٣).

٣- انظر: السلطان محمد الفاتح، عبد السلام فهمي، ص (١٠٠).

٤- انظر: الفتوح الإسلامية عبر العصور، ص (٣٧٠).

«ما رأينا، ولا سمعنا من قبل بمثل هذا الشيء الخارق، محمد الفاتح يحول الأرض إلى بحار، وتعبر سفنه فوق قمم الجبال بدلاً من الأمواج، لقد فاق محمد الثاني بهذا العمل الإسكندر الكبير»[1] .

وبذلك كان لوجود السفن الإسلامية في القرن الذهبي دورٌ كبيرٌ في إضعاف الروح المعنوية لدى المدافعين عن القسطنطينية؛ الذين اضطروا لسحب عددٍ من القوَّات للدفاع عن الأسوار الواقعة على القرن الذهبي التي كانت تحميها المياه من قبل[2].

هكذا كان السلطان محمد- رحمه الله- يفاجئ عدوه من حين لآخر بفنٍ جديد من فنون القتال، والحصار، وحرب الأعصاب، وطرق حديثة مبتكرة غير معروفة للعدو[3].

ففي المراحل المتقدَّمة من الحصار لجأ العثمانيون إلى طريقة عجيبة في محاولة دخول المدينة، حيث عمِلوا على حفر أنفاق تحت الأرض من مناطق مختلفة إلى داخل المدينة، وقد أصاب أهل القسطنطينية من جرّاء ذلك خوفٌ عظيم، وفزعٌ لا يوصف حتى صار كثيراً ما يخيل لهم: أن الأرض ستنشق ويخرج منها الجند العثمانيون، فكانوا يلتفتون يمنةً ويسرة، ويشيرون هنا، وهناك في فزع، ويقولون: (هذا عثماني! هذا عثماني!)[4].

و لم تقف محاولات العثمانيين عند هذا الحد بل استمروا بالابتكارات الحربية الذكية، فقد صنعوا قلعةً خشبيةً ضخمة، متحركة، تتكون من ثلاثة أدوار، وبارتفاعٍ أعلى من الأسوار، وكسيت بالدروع، والجلود المبللة بالماء لتمنع عنها

١- تاريخ الدولة العثمانية، يلماز أوزنتونا، ص (١٣٥).

٢- انظر: محمد الفاتح، ص (١٠٦).

٣- المصدر السبق نفسه، ص (١٠٨).

٤- انظر: الدولة العثمانية، د. الصلابي، ص (١٠٧).

النيران، فوقع الرعب في قلوب المدافعين عن المدينة حينما زحف العثمانيون بهذه القلاع، واقتربوا بها من الأسوار، فظنَّ الإمبراطور قسطنطين لما رآها: أنَّ الهزيمة حلَّت به، إلا أنَّ المدافعين كثفوا من قذف القلاع بالنيران حتى أحرقت، ووقعت على الأبراج البيزنطية فقتلت من فيها من المدافعين[1].

وعندما أُخبِرَ السلطان بالأمر كان جوابه: «لا بأس، غداً نصنع أربعاً أخرى»[2].

في هذه الأثناء كانت المدفعية العثمانية لا تنفك عن عملها في دك الأسوار، فتهدَّمت أجزاء كثيرة من الأسوار والأبراج، وأصبحت إمكانية اقتحام المدينة واردةً في أي لحظة، إلا أن اختيار موقع الاقتحام لم يحدد بعد[3].

ثم عمد السلطان بعد اليأس من تسليم المدينة صلحاً إلى تكثيف الهجوم، ولا سيَّما القصف المدفعي على المدينة، حتى إنَّ المدفع السلطاني الضخم انفجر من كثرة الاستخدام، وقتل المشتغلون به، وعلى رأسهم المهندس المجري الذي تولى الإشراف على تصميمه، وبالرّغمِ من هذه المصيبة، فقد أمر السلطان بإجراء عمليات التبريد للمدافع بزيت الزيتون، وقد نجح الفنيون في ذلك، وواصلت المدافع قصفها مرةً أخرى، بل تمكنت من توجيه القذائف بحيث تسقط وسط المدينة بالإضافة إلى ضربها للأسوار والأبراج[4].

١- انظر: محمد الفاتح، للرشيدي، ص (١٤٤).

٢- الدولة العثمانية، د. الصلابي، ص (١٠٩).

٣- انظر: الفتوحات الإسلامية عبر العصور، ص (٣٧٥).

٤- المصدر السابق نفسه، ص (٣٧٦).

وحانت ساعة الفتح، واقترب الأمر إلى نهايته، ففي يوم الأحد ١٨ جمادى الأولى، وجه السلطان الجنود إلى الخشوع، وتطهير النفوس والتقرب إلى الله تعالى بالصلاة وعموم الطاعات والتذلل والدعاء بين يديه لعلَّ الله ييسر لهم الفتح، كما قام الفاتح بنفسه في ذلك اليوم بتفقد أسوار المدينة ومعرفة أحوالها وما وصلت إليه أوضاع المدافعين عنها في النقاط المختلفة[١].

قسطنطين الحادي عشر، آخر أباطرة الدولة البيزنطية

وعلى الجهة المقابلة، كان الإمبراطور ومن معه من النصارى يصلون الصلاة الأخيرة في كنيسة آيا صوفيا[٢] أقدس الكنائس عندهم، ثم قصد الإمبراطور قصره يزوره الزيارة الأخيرة، وتوجه نحو صورةٍ (يزعمون أنها صورة المسيح) معلقة في إحدى الغرف فركع تحتها وتمتم ببعض الدعوات[٣].

١- الدولة العثمانية، د. الصلابي، ص (١١٣).

٢- آيا صوفيا: هي كاتدرائية سابقة ومسجد سابق وحالياً متحف يقع بمدينة إسطنبول بتركيا. وتعد من أبرز الأمثلة على العمارة البيزنطية والزخرفة العثمانية. بدأ الإمبراطور جستنيان في بناء هذه الكنيسة عام ٥٣٢م، وأستغرق بناؤها نحو خمس سنوات، حيث تم افتتاحها رسمياً عام ٥٣٧م.

٣- المصدر السبق نفسه، ص (١١٥).

فتح من الله، ونصر قريب:

عند الساعة الواحدة صباحاً من يوم الثلاثاء ٢٠ جمادى الأولى سنة ٨٥٧هـ، الموافق ١٤٣٥م، بُدِئ الهجوم العام على المدينة بعد أن أصدرت الأوامر للمجاهدين الذين علت أصواتهم بالتكبير، وانطلقوا نحو الأسوار، الأمر الذي ألقى الرعب في قلوب البيزنطيين الذين شرعوا في دق نواقيس الكنائس، حيث التجأ إليها كثيرٌ من النصارى، وكان الهجوم متزامناً برياً وبحرياً في وقت واحد، ونال الكثير من المجاهدين الشهادة، وبعد أن أنهكت الفرقة الأولى الهجومية؛ كان السلطان قد أعد فرقةً أخرى، فسحب الأولى، ووجه الثانية وهي بكامل نشاطها، واستمرَّ القتال إلى بزوغ الفجر، حيث أمر السلطان جنوده بالانسحاب؛ لكي يتيحوا الفرصة للمدافع، لتقوم بعملها مرة أخرى، ثم هدأت المدفعية لتفسح المجال أمام قسم جديد من شجعان الإنكشارية يقودهم السلطان بنفسه، فأظهر جنود الإنكشارية بسالة نادرة في الهجوم، واستطاعوا رفع الأعلام العثمانية عند بعض الأسوار.

وعندما رأى قسطنطين الأعلام العثمانية ترفرف على الأبراج الشمالية للمدينة، أيقن بعدم جدوى الدفاع، فخلع ملابسه حتى لا يعرف، ونزل عن حصانه، وقاتل حتى قتل في ساحة المعركة[1].

ومع حلول ظهيرة يوم الثلاثاء ٢٠ جمادى الأولى ٨٥٧هـ، الموافق ١٤٥٣م، كان السلطان الفاتح في وسط المدينة يحف به جنده، وقواده، وهم يرددون: ما شاء الله! فالتفت إليهم، وقال: لقد أصبحتم فاتحي القسطنطينية الذين أخبر عنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهنأهم بالنصر ونهاهم عن القتل وأمرهم بالرفق بالناس والإحسان إليهم ثم ترجل عن فرسه وسجد لله شكراً، وتواضعاً[2].

١- انظر: الدولة العثمانية، د. الصلابي، ص (١١٥،١١٦،١١٧).

٢- الفتوحات الإسلامية عبر العصور، ص (٣٨٣).

سياسة التسامح بين الأديان في فكر السلطان:

توجه السلطان بعد إتمام الفتح إلى كنيسة آيا صوفيا، وقد اجتمع فيها خلق كبير من الناس ومعهم الرهبان الذين كانوا يتلون عليهم صلواتهم وأدعيتهم، وعندما اقترب السلطان من أبوابها خاف المسيحيون داخلها خوفاً عظيماً، وقام أحد الرهبان بفتح الأبواب له فطلب من الراهب تهدئة الناس وطمأنتهم والعودة إلى بيوتهم بأمان، فأطمأن الناس، وكان بعض الرهبان مختبئين في سراديب الكنيسة فلما رأوا تسامح الفاتح وعفوه خرجوا وأعلنوا إسلامهم، وقد أمر الفاتح بعد ذلك بأن يؤذن في الكنيسة بالصلاة إعلاناً بجعلها مسجداً، وقد أعطى السلطان للنصارى حرية إقامة الشعائر الدينية واختيار رؤسائهم الدينين الذين لهم حق الحكم في النظر بالقضايا المدنية، كما أعطى هذا الحق لرجال الكنيسة في الأقاليم الأخرى، ولكنه في الوقت نفسه فرض الجزية على من لم يسلم منهم، ثم قام بجمع الأئمة المسيحيين لينتخبوا بطريركاً لهم، وأعطاهم نصف الكنائس الموجودة في المدينة، أمَّا النصف الآخر فجعله جوامع للمسلمين. وبتمام فتح المدينة، نقل السلطان محمد مركز العاصمة إليها، وسُميت «إسلامبول»، أي «تخت الإسلام» أو «مدينة الإسلام».

قال بول كولنو في كتابه العثمانيون في أوروبة: لقد مارس العالم العثماني تأثيراً هائلاً على سائر الشعوب، فقد كان العثمانيون يطبقون مبدأ التسامح الديني على نطاق واسع بينما كانت أوروبة تفتقر إلى ذلك.

فتوحاتٌ أخرى؛ بين الصرب والبوسنة وألترانت:

بعد النصر الساحق في القسطنطينية اتجه السلطان محمد قاصداً بلاد الصرب، فأسرع جان هونيادي الشجاع المجري الملقب «بالفارس الأبيض» وردّ عن الصرب مقدمة الجيوش العثمانية، إلا أن الصرب لم يتحمسوا لمساعدة المجر لهم لاختلاف مذهبهم، حيث كان المجر كاثوليكيين تابعين لبابا روما، والصرب أرثوذكسيين لا يذعنون لسلطة البابا، بل كانوا يفضلون تسلط المسلمين عليهم لما رأوه من عدم تعرضهم للدين مطلقاً. ولذلك أبرم أمير الصرب الصلح مع السلطان محمد الثاني على أن يدفع له سنويّا ثمانين ألفاً، وذلك في سنة ١٤٥٤.

يذكر أن جان هونيادي أرسل إلى ملك الصرب يعرض عليه التحالف للزحف معاً لقتال العثمانيين، فرد عليه سائلاً: فماذا تصنع بالكنيسة فيما إذا تغلبت أنت؟ فأجابه جان: أقرر العقيدة الكاثوليكية.
فسئل ملك الصرب السلطان محمد ذات السؤال، فأجابه السلطان: بجانب كل كنيسةٍ أبني جامعاً، وكل منا يعبد ربه كما يشاء.

وفي السنة التالية أعاد السلطان الكرّة على الصرب من جديد لتدخل المجر بشؤونها، فقصدها هذه المرة بجيش مؤلف من خمسين ألف مقاتل وثلاثمائة مدفع، ومر بجيوشه من جنوب تلك البلاد إلى شمالها بدون أن يلقى أقل معارضةٍ تذكر، حتى وصل مدينة بلغراد وحاصرها. وكان هونيادي المجري دخل المدينة قبل إتمام الحصار عليها، ودافع عنها دفاع الأبطال حتى يئس السلطان من فتحها ورفع عنها الحصار سنة ١٤٥٥، لكن وإن لم يتمكن العثمانيون من فتح عاصمة الصرب إلا أنهم أصابوا هونيادي بجراح بليغة توفي بسببها بعد رفع الحصار عن المدينة بنحو عشرين يوماً. ولما علم السلطان بموته أرسل الصدر الأعظم «محمود باشا» لإتمام فتح بلاد الصرب فأتمّ فتحها من سنة ١٤٥٨ إلى سنة ١٤٦٠[1].

١- تاريخ الدولة العثمانية، الأمير شكيب أرسلان، ص (٨٧).

وفي سنة ١٤٦٢، حارب السلطان بلاد البوسنة[١] لامتناع أميرها «استيفان توماسفيتش» عن دفع الخراج، وفي سنة ١٤٦٤، أراد متياس كرفن[٢] ملك المجر استخلاص البوسنة من العثمانيين، فهُزم بعد أن قُتل معظم جيشه، وكانت عاقبة تدخله أن جُعلت البوسنة ولاية كباقي ولايات الدولة، وسُلبت ما كان مُنح لها من الامتيازات، ودخل في جيش الإنكشارية ثلاثون ألفاً من شبانها وأسلم أغلب أشراف أهاليها [٣]، كما فتحت أغلب الجزر الواقعة بين اليونان وإيطاليا ثمَّ سار القائد البحري كدك أحمد باشا بمراكبه وافتتح مدين أوترانت[٤] بإيطاليا[٥].

وفاة السلطان محمد الفاتح:

في شهر ربيع من عام ٨٨٦هـ /١٤٨١م، غادر السلطان القسطنطينية إلى آسيا الصغرى، حيث كان قد أُعِدَّ في (إسكدار) جيشٌ آخر كبير، ولكنَّ وعكةً صحيةً أصابته قبل خروجه، إلا أنَّه أصر على الذهاب، حباً للجهاد، وامتثالاً لأمر الله بنشر الدعوة في كل مكان، وكان المرض تضاعف عليه هذه المرة، فلم ينفع تطبيب ولا دواء، ومات السلطان وسط جيشه العرمرم يوم الخميس الرابع من ربيع الأول سنة ٨٨٦ هـ، وهو في الثانية والخمسين من عمره بعد أن حكم

١- البوسنة: هي دولة تقع في البلقان بجنوب شرق أوروبا، إحدى جمهوريات يوغوسلافيا السابقة. يحدها من الشمال والغرب والجنوب كرواتيا، من الشرق صربيا ومن الجنوب الغربي جمهورية الجبل الأسود.

٢- هو ابن هونيادي المجري ولد سنة ١٤٤٣، وانتخب ملكاً على بلاد المجر سنة ١٤٥٨، واشتهر بمحاربة كافة جيرانه دفاعاً عن استقلال المجر.

٣- تاريخ الدولة العلية، محمد فريد بك، ص (١٧٠).

٤- أوترانت: تقع على ساحل إيطاليا الشرقي في أقرب نقطة إلى ساحل ألبانيا.وهي مدينة قديمة بجنوب إيطاليا شهيرة باستخراج زيت الزيتون، وقد امتلكها العرب مدة من الزمن.

٥- تاريخ الدولة العثمانية، د. علي حسون، ص (٣٩).

ثلاثين عاماً ونيف[1].

ذات مرةٍ سأل أحد القضاة: أين تقصد بجيوشك أيها السلطان؟ فأجابه السلطان الفاتح: «لو أن شعرةً في لحيتي عرفت ذلك، لنتفتها وقذفت بها في النار».

لما وصل خبر الوفاة إلى روما؛ ابتهج البابا، وأمر بفتح الكنائس، وأقيمت فيها الصلوات، والاحتفالات، وسارت المواكب العامة تجوب الشوارع، وهي تنشد أناشيد النصر، والفرح بين طلقات المدافع، وظلَّت هذه الاحتفالات قائمةً في روما طوال ثلاثة أيام فلقد تخلصت النصرانية بوفاة محمد الفاتح من أعظمِ خطرٍ يهددها[2].

لم يكن أحدٌ يعلم شيئاً عن الجهة التي كان سيذهب إليها السلطان الفاتح بجيشه، وذهبت ظنون الناس في ذلك مذاهب شتى، فهل كان يقصد رودوس[3] ليفتح هذه الجزيرة التي امتنعت على قائد جيشه ((مسيح باشا)) أم كان يتأهب للحاق بجيشه الظافر في جنوبي إيطاليا، ويزحف بنفسه بعد ذلك إلى روما، ففرنسا، وإسبانيا؟.

لقد كان من عادة الفاتح أن يحتفظ بالجهة التي يقصدها، ويترك أعداءه في غفلة، وحيرة من أمرهم لا يدري أحد متى تنزل عليه الضربة القادمة، ثم يتبع ذلك التكتم الشديد بالسرعة الخاطفة في التنفيذ[4].

فرحمة الله، ومغفرته على السلطان محمد الفاتح، وأعلى ذكره في المصلحين.

١- الدولة العثمانية، د. الصلابي، ص (١٧٢).

٢- المصدر السابق نفسه، ص (١٧٣).

٣- رودوس: (باليونانية:Ρόδος) هي جزيرة تقع في اليونان. تقع بالقرب من الساحل الجنوبي لتركيا، في منتصف المسافة بين جزر اليونان الرئيسية وقبرص. يقدر عدد المسلمين فيها بـ ٣٥٠٠ مسلم.

٤- انظر: محمد الفاتح، ص (٢٦٠).

محمد الفاتح يقود جيش المسلمين في حصار القسطنطينية

مدفع سلطاني عثماني مماثل للمدفع الذي استخدم عند حصار القسطنطينية.
تم صب هذا المدفع عام ١٤٦٤، وهو الآن موجود في متحف الترسانة الملكية البريطانية

صورة توضح كلاً من مضيقي البوسفور والدردنيل

(٨) با يزيد الثاني ابن محمد الثاني
(٨٨٦- ٩١٨هـ)،(١٤٨١- ١٥١٢م)

بعد وفاة السلطان محمد الثّاني تولّى ابنه با يزيد الثّاني السلطة في البلاد، وكان سلطاناً وديعاً، نشأ محباً للأدب، متفقهاً بعلوم الشريعة الإسلاميَّة، شغوفاً بعلم الفلك، واستعان بالخبراء الفنِّيِّين اليونانيِّين، والبلغاريين في تحسين شبكة الطُّرق والجسور؛ لربط أقاليم الدَّولة ببعضها [1].

الأحداث الداخلية والخارجية في عهده:

أولاً: سياسته مع المماليك:

أسهمت سياسة با يزيد السلمية في عقد صلح مع المماليك ظل سارياً حتى نهاية عهده عام ١٥١٢م، وأكد هذا الحدث حرص السلاطين العثمانيين على سياسة السلام مع أمراء المسلمين ما دامت شعوبهم تعيش حالةً من الأمن والعدل.

حدثت معارك بين العثمانيين والمماليك على الحدود الشَّاميَّة، إلا أنَّها لم تحتدم إلى حدِّ التهديد بحدوث حرب شاملة بينهما، وإن كانت قد أسهمت في أن يخيِّم شعورٌ بعدم الثِّقة بينهما، وبالرغم من ذلك فقد شعر السلطان المملوكي ((قايتباي)) بمخاوف من احتمال قيام حربٍ واسعةٍ بينه وبين العثمانيين، سواءً لإدراكه حجم القوة العثمانيَّة، أو لانشغال جزءٍ من قوَّاته في مواجهة البرتغاليين.

إلا أنَّ السلطان العثمانيَّ با يزيد الثاني قد بدَّد له هذه المخاوف، حيث قام بإرسال رسولٍ من قبله إلى السلطان المملوكي سنة ١٤٩١م، ومعه مفاتيح القلاع

١- انظر: الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، ص (٥٠).

التي استولى عليها العثمانيون على الحدود بينهما، وقد لقي هذا الأمر ترحيباً لدى السلطان المملوكي، فقام بإطلاق سراح الأسرى العثمانيين لديه[1].

ثانياً: الدبلوماسية الغربية، حرب من نوع آخر:

استمرَّت راية الجهاد مرفوعةً طوال عهد السلطان بايزيد، وأدرك الأعداء أنَّهم لا يستطيعون مواجهة العزيمة العثمانية في حربٍ نظاميَّةٍ يحققون فيها أطماعهم، لهذا لجؤوا إلى أسلوب خبيث تستَّروا به تحت مسمَّى العلاقات الدبلوماسيَّة لكي ينخروا في عظام الأمَّة ويدمِّروا المجتمع المسلم من الدَّاخل، ففي عهد السلطان با يزيد الثاني وصل أول سفيرٍ روسيٍّ إلى إستانبول عام (٨٩٨هـ/ ١٤٩٢م).

إنَّ وصول السفير الروسي على عهد دوق موسكو إيفان الثالث[2] وما أعطى له ولغيره من حصانة وامتيازات فتح الباب أمام أعداء الأمَّة الإسلامية لكشف ضعفها ومعرفة عوراتها، والعمل على إفسادها[3].

إنَّ حدوث هذا الأمر لا يعني أنَّ السلطان با يزيد وقف موقفاً ضعيفاً أمام هذه الظروف، ولكنَّ الدَّولة كانت تمر بظروف صعبة في محاربتها لأعداء الإسلام على امتداد شبه جزيرة الأناضول، وأوربة الشرقيَّة كلها[4].

ثالثاً: التنظيم الداخلي:

اهتمَّ بايزيد بإنشاء المباني العامَّة، وفعل الخيرات، والعطف على الفقراء، وكان أن حدث في زمانه زلازل عظيمةٌ في القسطنطينية، فخرَّبت ألفاً وسبعين

١- انظر: قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين، ص (٦٦).

٢- القيصر الروسي إيفان الثالث (عاش بين ١٤٤٠- ١٥٠٥) ويطلق عليه أيضا إيفان الكبير.

٣- انظر: الدولة العثمانية، د. الصلابي، ص (١٧٨).

٤- الدولة العثمانية، د. جمال عبد الهادي، ص (٥٠).

بيتاً، وعدَّة جوامع، وجانباً عظيماً من القصور، وعطَّلت مجاري المياه، وصعد البحر إلى البر فكانت أمواجه تتدفق فوق الأسوار، وظلَّ هذا الزلزال يتكرر يوميَّاً مدَّة ٤٥ يوماً، وما إن سكنت الأمور؛ حتى كلَّف السلطان ١٥ ألفاً من العمال بإصلاح ما تهدَّم[١].

رابعاً: تنازله عن السلطة، وبعض صفاته:

عاش السلطان بايزيد سبعةً وستين عاماً، وكان قوي البنية، أحدب الأنف، أسود الشعر، محبَّاً للعلوم، يقضي العشر الأخير من شهر رمضان في العبادة، والذكر، كان بارعاً في رمي السهام ويباشر الحروب بنفسه [٢] دام ملكه إحدى وثلاثين سنة إلا أيَّاماً[٣].

وكان محبَّاً للشعر والشعراء، وله أشعارٌ في الحكمة، يقول في بعضها:

استيقظ من نوم الغفلة وانظر إلى الزِّينة في الأشجار.

انظر إلى قدرة الله الحقِّ.. انظر إلى رونق الأزهار.

فافتح عينيك لتشاهد حياة الأرض بعد الممات[٤].

وفي يوم ١٨ صفر ٩١٨هـ، ترك حكم الدولة لابنه سليم الأول، وذلك بدعم من الجيش، الذي كان ينظر إليه على أنَّه الأمل المرتجى في بعث النَّشاط الحربيِّ للدولة العثمانية بصورة أوسع، ودفع حركة الفتوحات إلى الأمام[٥].

١- انظر: تاريخ سلاطين آل عثمان، يوسف أصاف، ص (٦٦).

٢- المصدر السابق نفسه.

٣- انظر: تاريخ سلاطين آل عثمان، للقرماني، ص (٣٦).

٤- انظر: العثمانيون في التاريخ والحضارة، ص (٢٤٩).

٥- انظر: قيام الدولة العثمانية، ص (٥٨).

٩١٨- ٩٧٤ هـ /١٥١٢- ١٥٦٦م
الدولة العثمانية في أقصى اتساعها

(٩) سليم الأوّل ابن بايزيد الثاني
(٩١٨-٩٢٦هـ)، (١٥١٢-١٥٢٠م)

جلس السلطان سليم الأول على العرش العثمانيِّ في عام ٩١٨هـ، وقد أظهر منذ بداية حكمه ميلاً إلى تصفية خصومه ولو كانوا إخوته، أو أبناءهم، وكان يحبُّ الأدب، والشعر الفارسي، وبالرغم من قسوته فإنَّه كان يميل إلى صحبة رجال العلم[1].

وهو أول من تلقب بأمير المؤمنين من سلاطين بني عثمان، عُرف لدى الغرب بـ (Selim the Grim) أي سليم العابس، ويلقب كذلك بـ (ياوز) أي الشجاع القاطع عند الأتراك.

كان السلطان سليم يصطحب معه المؤرخين، والشعراء إلى ميادين القتال ليسجلوا أحداث المعارك، وينشدوا القصائد التي تحكي أمجاد الماضي.

عندما ارتقى السلطان سليم العرش العثمانيِّ كانت الدَّولة قد وصلت إلى مفترق الطُّرق، هل تظلُّ على هذا الوضع، وهذا القدر من الاتساع، دولة بلقانيَّة أناضوليَّة؟ أم تستمر في التَّوسُّع الإقليميِّ في أوربا؟ أم تتجه نحو المشرق الإسلامي؟.

فشاءت مشيئة الله أن تتجه الجيوش العثمانية نحو المشرق لأجل إنقاذ العالم الإسلامي بصورةٍ عامة والمقدَّسات الإسلاميَّة بصورة خاصة من الغزو الصَّليبي الجديد من جانب الإسبان في البحر المتوسط،

١- انظر: في أصول التَّاريخ العثماني، ص (٧٦).

والبرتغاليين في المحيط الهندي، وبحر العرب، والبحر الأحمر؛ الذين أخذوا يطوِّقون العالم الإسلامي، ويفرضون حصاراً اقتصاديًّاً حتَّى يسهل عليهم ابتلاعه[1].

وفاة السلطان سليم، وبعض صفاته:

في التَّاسع من شوَّال سنة ستٍّ وعشرين وتسعمئةٍ ليلة السبت توفِّي السلطان سليم الأوَّل، وله من العمر أربعٌ وخمسون سنة، وصلُّوا عليه في جامع السلطان محمد، ثم حملوه، ودفنوه في محلِّ قبره، وأمر ابنه السلطان سليمان ببناء جامعٍ عظيم، وعمارةٍ لطعام الفقراء صدقةً عن والده[2].

كان سليم الأوَّل عالماً فاضلاً ذكياً، وكان يعرف الألسنة الثلاثة: العربيَّة، والفارسيَّة، والتركيَّة، وامتاز بالحدَّة والنَّشاط، وكان ينوي جعل اللغة العربيَّة هي اللغة الرسمية في الدَّولة العثمانيَّة، وقد كان شاعراً عظيماً نظم القصائد الجيدة باللغة الفارسيَّة، وقد نشر ديوانه عام ١٩٠٤م، بأمر من القيصر الألماني فيلهلم الثاني وقُدِّم هديةً للسلطان عبد الحميد الثاني، وخلَّدت ذكراه عند الشعب التركي[3].

ويصفه من رآه من معاصريه بأنه كان عظيم اللحية شاحب الوجه ونحيف البدن ولا يضع الحلق في أذنيه كما تخيل بعض الرسامين الغربيين؛ لأنها محرمة على الرجال عند المسلمين. وعلى الرغم من بطشه وجبروته إلا أن السلطان سليم كان يجلّ العلماء والأدباء ويقدمهم في مجلسه ويحسن إليهم كذلك شجع رعاياه على العلم وطلبه، كما أنه أي السلطان كان عارفاً بالفقه والشعر والتاريخ.

١- انظر: الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، ص (٢٦).

٢- الدولة العثمانيَّة، د. الصلابي، ص (٢١٥،٢١٦).

٣- انظر: تاريخ الدولة العثمانية، د. علي حسون، ص (٥٢).

فيلهام الثاني

فيلهام الثاني (بالألمانية Wilhelm II):

ولد في برلين سنة ١٨٥٩ وتوفى في هولندا سنة ١٩٤١. كان قيصراً للرايخ الثاني الألماني من سنة ١٨٨٨ حتى سنة ١٩١٨، إلى جانـب كونه ملكاً لبروسيا. وهو ينحدر من أسرة هوهنتسولرن، التي حكمـت مملكة بروسيا ابتداء من سنة ١٧٠٢. أجبر على التنازل عن العـرش في سنة ١٩١٨ بعد هزيمة ألمانيا في الحرب العالمية الأولى ونفي إلى هولندا.

(١٠) سليمان القانوني ابن سليم الأوّل (٩٢٦-٩٧٤هـ)، (١٥٢٠-١٥٦٦م)

ولد السلطان سليمان القانوني في شعبان سنة ٨٩٨هـ /١٤٩٥م، وفي عهده بلغت الدَّولة أوج الكمال والقوَّة، وهو عاشر السلاطين العثمانيين[١].

اهتمَّ به والده اهتماماً عظيماً، فنشأ محباً للعلم، والأدب، واشتهر منذ شبابه بالجديَّة، والوقار، ارتقى عرش السلطنة في السادسة والعشرين من عمره، وكان متأنياً في جميع شؤونه، ولا يتعجل في الأمور التي يريد تنفيذها، وإذا اتخذ قراراً لا يرجع عنه[٢].

الفتن التي واجهته في بداية حكمه:

ابتُليَ سليمان في السنوات الأولى في عهده بتمردين شغلاه عن حركة الجهاد، حيث ظنَّ الولاة الطَّموحون أنَّ فرصة الاستقلال بأقاليمهم حان وقتها، فقام جان برد الغزالي والي الشام بتمرد على الدَّولة، وأعلن العصيان عليها، فأمر سليمان بقمع هذه الفتنة فقمعت، وقطع رأس المتمرد وأرسل إلى إستانبول دلالةً على انتهاء التمرد.

أمَّا التمرد الثَّاني: فقد قام به أحمد شاه الخائن في مصر، وكان هذا عام ٩٣٠هـ/١٥٢٤م، فهو ما إن وصل إلى مصر حتَّى حاول استمالة النَّاس، وأعلن نفسه سلطاناً مستقلاً، إلا أنَّ أهل الشرع، وجنود الدولة العثمانيَّة من الإنكشارية

١- المصدر السابق نفسه.

٢- انظر: السلاطين العثمانيون، الكتاب المصوَّر، ص (٥١).

قاموا ضدَّه وقتلوه[1].

وبعد هذا كله هدأت الأمور في الدولة العثمانيَّة، وبدأ السلطان في التخطيط لسياسةٍ جديدةٍ للجهاد في أوروبة[2].

وفاة السلطان سليمان، وبعض صفاته:

اشتدَّ مرض السلطان، وتوفي في ٢٠صفر عام ٩٧٤هـ، الموافق ١٥٦٦م، واستمر حكمه ٤٨ سنة. وكان أن اُشتُهِرَ بالقانوني نظراً للقوانين العديدة التي وضعها؛ ففي مجال الأنظمة الدَّاخلية أحدث بعض التغييرات في نظام العلماء والمدرسين الذي وضعه محمد الفاتح؛ فجعل أكبر الوظائف العلميَّة وظيفة المفتي، وقسم جيش الإنكشارية إلى ثلاث فرقٍ مختلفةٍ في المرتبات والرتب، وكان عدد الجيش عند وفاته ٣٠٠ ألف مقاتل فيه ٥٠ ألف جندي نظامي، كما أنَّ عدد المدافع كان ٣٠٠ مدفع، وكذلك السفن البحريَّة تقارب العدد نفسه، وقد بدأ بعده توقف الفتوحات؛ إذ إنَّه أجاز للإنكشارية القتال تحت إمرة قائدهم بدلاً من قيادة السلطان، الأمر الذي دفع أغلب السلاطين من بعده إلى التقاعس عن الخروج للقتال[3].

١- انظر: الدَّولة العثمانيَّة، د. الصلابي، ص (٢١٨).

٢- انظر: العثمانيون في التَّاريخ والحضارة، د.محمد حرب، ص (٩١).

٣- انظر: تاريخ الدولة العثمانية، د. علي حسون، ص (٥٣،٥٤).

«سياسة الدَّولة العثمانيَّة الجهاديَّة»

أولاً: محاربة الدولة الصفوية:

يعود نسب الصَّفويِّين إلى الشيخ صفي الدين الأردبيلي ٦٥٠-٧٣٥هـ/١٢٥٢-١٣٣٤م الجدُّ الأكبر للشَّاه إسماعيل الصَّوفي[١] مؤسس الدَّولة الصَّفويَّة[٢].

وكان الشَّاه إسماعيل الصفوي قد احتلَّ العراق العربي وخراسان وديار بكر عام ٩١٤هـ/١٥٠٨م[٣].

وبناءً على هذا سار السلطان سليم بجيوشه من أدرنة باتجاه تبريز[٤] في ٢٢ محرَّم عام ٩٢٠هـ، الموافق ١٤ آذار عام ١٥١٤م، وسار الجيش تحت قيادته، فتقهقرت أمامه الجيوش الصفوية، واستمرَّت متظاهرةً بالتراجع بقصد إنهاك قوَّته حتَّى

اتصفت الفتوحات العثمانية بالحكمة، ووجود السبب، ومن ثم فالجيوش العثمانية في عهد السلطان سليم اتجهت نحو المشرق الإسلامي لا بقصد التوسع الإقليمي، بل بهدف حماية المسلمين والأماكن المقدسة من الغزو البرتغالي والإسباني.

وبالمقابل فإن توجه الجيوش العثمانية في عهد السلطان سليمان نحو مدن أوروبة، كان بمنزلة رسالة تخاطب ملوك العالم:

بأن الدولة العثمانية ستظل يافعةً، قويةً قادرةً على حماية حدودها مهما اتسعت أراضيها، وكثر سكانها.

١- إسماعيل الصفوي (٨٩٢ هـ/ ١٤٨٧م- ٩٣٠ هـ/ ١٥٢٤م) مؤسس الدولة الصفوية في إيران.

٢- الدولة العثمانية، د. الصلابي، ص (١٩٠).

٣- تاريخ الدولة العثمانية، د. علي حسون، ص (٦٠).

٤- تبريز هي مدينة تقع في شمال غرب إيران.

جهات تبريز، وهناك وقع القتال في ((وادي جالديران)) في ٢ رجب سنة ٩٢٠هـ، الموافق ٢٤ آب ١٥١٤م، فانتصر العثمانيُّون بفضل مدافعهم الضخمة، وفرَّ الشاه، ودخل السلطان سليم تبريز، واستولى على خزائن الشَّاه، وأرسلها للعاصمة، وكذلك أرسل إليها أربعين شخصاً من أمهر الصنَّاع، الأمرُ الذي يدلُّ على عدم إغفاله تقدم الصناعة أثناء انشغاله بالحروب[1].

ثمَّ قام ببعض الفتوحات، وعاد بعدها إلى إستانبول تاركاً قوَّاده لإتمام فتح الولايات الفارسيَّة الشرقيَّة، ففُتِحَ إقليم ديار بكر، وماردين والموصل والرَّقَّة، وأطاعت قبائل الكرد شرط بقائهم تحت حكم رؤسائهم[2].

نتائج الحرب العثمانية الصفوية:

١- أمّنَ العثمانيون حدود دولتهم الشرقيَّة.

٢- ضمُّ شمالي العراق، وديار بكر إلى الدَّولة العثمانيَّة.

ثانياً: ضم دولة المماليك:

الأسباب التي دعت السلطان سليم إلى ضمِّ دولة المماليك:

١- لم يكن الجيش المملوكيِّ قادراً على الوقوف في وجه البرتغاليين الذين وصلوا إلى جنوب البلاد العربيَّة، وهددوا الأماكن المقدَّسة الإسلاميَّة بما فيها بيت المقدس[3].

٢- تفشِّي ظلم الدَّولة المملوكيَّة بين النَّاس، ورغبة أهل الشَّام، وعلماء مصر في التَّخلص من الدَّولة المملوكيَّة، والانضمام إلى الدَّولة العثمانيَّة، فقد اجتمع

١- انظر: تاريخ الدَّولة العثمانية، د. علي حسون، ص (٦٠،٦١)

٢- المصدر السابق نفسه.

٣- المصدر السابق نفسه، ص (٥٨)

العلماء، والقضاة، وأهل الرأي، وتباحثوا في حالهم، ثمَّ قرروا أن يتولَّى قضاة المذاهب الأربعة والأشراف كتابة عريضةٍ نيابةً عن الجميع، يخاطبون فيها السلطان العثماني سليم الأوَّل، ويقولون فيها:

«إنَّ أهل الشام ضاقوا بالظُّلم المملوكي، وإنَّ حكام المماليك يخالفون الشرع الشريف، وإنَّ السلطان إذا قرر الزَّحف على السلطنة المملوكيَّة؛ فإنَّ الشعب سيرحب به، وسيخرج بجميع فئاته، ليرحبوا بقدومه، ويطلبون من سليم الأوَّل أن يرسل لهم رسولاً من عنده، يقابلهم سراً، ويعطيهم العهد بالأمان، حتَّى تطمئن قلوب النَّاس»[1].

ولقد ذكر الدكتور محمد حرب: أنَّ هذه الوثيقة موجودةٌ في الأرشيف العثماني في متحف (طوب كابي) في إستانبول، رقم ١١٦٣٤ (٢٦).

والتقى الجمعان:

جَّهز السلطان سليم جيشاً وسار به نحو بلاد الشَّام، والتقى الجمعان على مشارف حلب في مرج دابق[2] عام ١٥١٧م، وانتصر العثمانيون، وقُتِلَ الغوري[3] سلطانُ المماليك، وأكرم العثمانيون الغوري بعد مماته، وأقاموا عليه صلاة الجنازة ودفنوه في مشارف حلب، ودخل السلطان سليم مدينة حلب، ثمَّ دمشق، ودعي له في الجوامع، وسكَّت النقود باسمه سلطاناً، وخليفة[4].

١- انظر: العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص (١٧٠).

٢- دابق: قرية بين عزاز وحلب أو إلى الشمال الغربي من حلب، وكان بنو مروان الأمويون يتخذوه قاعدةً لهم إذا غزو بالصيف، وفيه قبر سليمان بن عبد الملك، إذ توفي هناك أثناء حصار جنوده للقسطنطينية.

٣- الأشرف أبو النصر قانصوه الغوري آخر سلاطين المماليك البرجية. ولد سنة (٨٥٠ هـ١٤٤٦م).

٤- المصدر السابق نفسه.

وما إن وصل نَبَأُ هزيمةِ المماليك وقَتْلُ سُلطانِهم إلى مصر، حتَّى انتخبوا طومان باي[1] سلطاناً عليهم، وهو الَّذي عهد إليه الغوري بحكم مصر أثناء غيابه، فعرض السلطان سليم عليه الصلح شريطة اعترافه بالسيادة العثمانيَّة، إلا أنَّه رفض ذلك فالتقت مقدمتا الجيشين قرب غزَّة، فدخل العثمانيون غزة، واتَّجهوا نحو القاهرة حتَّى وصلوا مشارفها، وعسكروا في مكان قريب منها، ونشب القتال بينهما في كانون الثاني ١٥١٧م، فقامت المدافع العثمانيَّة بضرب جيوش المماليك فهزموا، وبعد ثمانية أيام دخل العثمانيون القاهرة، ومكث السلطان سليم نحو الشهر بالقاهرة، وزار الجوامع والآثار، ووزَّع العطايا وحضر الاحتفالات، ثمَّ تنازل الخليفة العبَّاسي المتوكل على الله له وسلَّمه الآثار النبويَّة الشريفة وهي؛ اللواء والبردة، كما حضر أبو نمي ابن شريف مكة إلى مصر فقدَّم الطاعة للسلطان سليم، وسلَّمه مفاتيح الحرمين الشريفين[2].

ثمَّ أرسل السلطان سليم الأوَّل حملة إلى بلاد اليمن قضت على المماليك هناك، وبدأت الاستعدادات لقتال البرتغاليين، وتحرير المواقع التي سيطروا عليها، وفي أوائل شهر أيلول من عام ٩٢٣هـ، عاد السلطان من القاهرة بعد أن عيَّن خير بك والياً على مصر، وترك فيها حاميةً عثمانيَّة، ثمَّ وصل دمشق في ٢٠ رمضان، ومكث فيها حتَّى ٢٢ صفر، وحضر الاحتفال بإقامة الصلاة لأول مرَّة في الجامع الذي أقامه هناك على ضريح الشيخ محيي الدين بن عربي، ثمَّ تابع سيره إلى العاصمة التي وصل إليها في ١٧ رجب سنة ٩٢٤هـ /١٥١٨م، واتجه منها إلى أدرنة بقصد الرَّاحة، وهو يفكر في استئناف قتال أعداء الله في أوربا، ولكنَّ المنيَّة عاجلته في طريق عودته من إستانبول إلى أدرنة ١٥٢٠م[3].

١- الأشرف طومان باى آخر سلاطين المماليك الشراكسة في مصر.

٢- تاريخ الدولة العثمانية، د. علي حسون، ص (٦٢).

٣- المصدر السابق نفسه، ص (٦٣)

نتائج الحرب العثمانية البرتغالية:

١- احتفظ العثمانيون بالأماكن المقدَّسة، وطرق الحج.

٢- حماية الحدود البريَّة من هجمات البرتغاليين.

٣- استمرار عمليَّات تبادل البضائع الهنديَّة مع تجار أوربة في أسواق حلب، والقاهرة، وإستانبول، ففي سنة ١٥٥٤م، اشترى البندقيُّون وحدهم ستَّة آلاف قنطار من التَّوابل، وفي الوقت نفسه كانت تصل إلى ميناء جدَّة عشرون سفينةً محمَّلةً بالبضائع الهنديَّة[١].

إن النجاح الذي حققته الدولة العثمانية في درء الخطر البرتغالي على العالم الإسلامي يستحق كل تقدير وثناء، فدولة المماليك المتهالكة كانت توشك على الانهيار، ولم تكن على مستوى من القوة يكفل لها الوقوف أمام الغزو البرتغالي، فتحملت الدولة العثمانية أعباء الدفاع عن حقوق المسلمين، وممتلكاتهم، ونجحت أيما نجاح في الحد من مطامع الغزاة، ووصولهم إلى الأماكن المقدسة، كما كانوا يرغبون.

ثالثاً: مسألة انتقال الخلافة:

إنَّ السلطان سليم وأجداده كانوا قد كسبوا مكانةً عظيمةً تلائم استعمال لقب الخلافة في الوقت الذي كان فيه مركز الخليفة العباسي في القاهرة لا يعتدُّ به، كما أنَّ فتوحات السلطان سليم أكسبته قوَّةً ونفوذاً، جعله مقصداً للمسلمين المستضعفين.

والخلاصة أنَّ السلطان سليم لم يكن مهتمَّاً بلقب الخلافة، وكذلك سلاطين آل عثمان من بعده، وأنَّ الاهتمام بهذا اللقب قد عاد بعد ضعف الدولة العثمانيَّة[٢].

١- انظر: تاريخ العرب الحديث، مجموعة من العلماء، ص (٤٥،٤٦).

٢- انظر: الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، ص (٦١،٦٢).

رابعاً: أخبار الشمال الإفريقي:

قام الدُّكتور عبد الجليل التَّميمي بترجمة وثيقة تركيَّة محفوظة في دار المحفوظات التُّاريخيَّة بإستانبول تحت رقم ٤٦٥٦، مؤرَّخةٌ في أوائل شهر ذي القعدة عام ٩٢٥هـ، الموافق ١٥١٩م، وهذه الوثيقة عبارةٌ عن رسالة موجَّهة من سكان بلاد الجزائر على اختلاف مستوياتهم، والغرض منها ربط الجزائر بالدَّولة العثمانيَّة وجاء فيها أنَّ خير الدين بربروس[1] كان شديد الرغبة في أن يذهب بنفسه إلى إستانبول ليعرض على السلطان سليم الأوَّل شخصيَّاً أبعاد قضيَّة الجزائر، ولكنَّ زعماء مدينة الجزائر توسَّلوا إليه أن يبقى كي يستطيع مواجهة الأعداء إذا تحرَّكوا[2].

فسارع السلطان سليم إلى منح رتبة بكلربك إلى خير الدين بربروس، وأصبح القائد الأعلى للقوَّات المسلَّحة في إقليمه ممثلاً للسلطان، وبذلك دخلت الجزائر تحت حكم الدَّولة العثمانيَّة، وأصبح أيُّ اعتداءٍ خارجيٍّ على أراضيها يعد اعتداءً على الدَّولة العثمانيَّة، وأرسل السلطان إلى الجزائر قوَّةً من سلاح المدفعيَّة، وألفين من جنود الإنكشارية.

١- خير الدين بربروس (١٤٦٧- ١٥٤٦) كان قائد الأساطيل العثمانية ومجاهداً بحرياً. ولد في جزيرة لسبوس في اليونان المعاصرة وتوفي في الآستانة (اسطنبول). اسمه الأصلي هو خضر بن يعقوب ولقبه خير الدين باشا. بينما عرف لدى الأوربيين بباربروسا (ذو اللحية الحمراء). كانت وفاته في عام ٩٥٣هـ الموافق ١٥٤٦م، وكان ذكياً ذا مقدرةٍ عسكرية وبلغت قوة الأسطول العثماني في زمانه مرحلة الأوج، فكان المسيطر على البحر الأبيض المتوسط لا ينازعه أسطول آخر.

٢- الدَّولة العثمانيَّة، د. الصلابي، ص (٢٣٠، ٢٣١).

نتائج دخول الجزائر في الحماية العثمانية:

صورة للقائد خير الدين بربوس

١- كانت الجزائر أوَّل إقليم من أقاليم شمال أفريقية يدخل تحت السيادة العثمانيَّة وذلك سنة ١٥١٩م، ودعي للسلطان العثماني على المنابر في المساجد، وضربت العملة باسمه.

٢- كانت الدَّولة حريصةً على امتداد نفوذها بعد ذلك إلى كل أقاليم الشَّمال الإفريقي لتوحيده تحت راية الإسلام، والعمل على تخليص مسلمي الأندلس من الأعمال الوحشيَّة التي كان يقوم بها الإسبان النَّصارى ضدَّهم[١].

ولقد تضرَّرت إسبانيا من نجاح خير الدِّين في الشمال الإفريقي، وكان شارل الخامس[٢] إمبراطور الدَّولة الرومانيَّة، التي كانت تضمُّ وقتذاك إسبانيا، بلجيكا، هولندا، ألمانيا، النَّمسا، إيطاليا، لذا يمكن القول إنّ الصراع بين شارل الخامس وبين خير الدين قائد الأسطول العثمانيِّ كان بمنزلة فتح جبهةٍ حربيَّةٍ جديدةٍ ضدَّ الدَّولة العثمانيَّة[٣].

١- الدَّولة العثمانيَّة، د. الصلابي، ص (٢٣٢).

٢- شارلكان أو شارل الخامس (١٥٠٠- ١٥٥٨) ملك إسبانيا وإمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة.

٣- المصدر السابق نفسه، ص (٢٣٤).

وقد استطاع خير الدين أن يضمِّ تونس إلى السيادة العثمانيَّة، ولكنَّ ذلك الأمر لم يلقَ استحسان شارل الخامس الذي أعدَّ عمليَّة بحريَّة شاقةً تكوَّنت من ثلاثين ألف مقاتل من الأقاليم المذكورة آنفاً، وركب الإمبراطور البحر من ميناء برشلونة، وعندما رست سفنه أمام تونس قامت المعارك العنيفة بين الطَّرفين[1]، الأمر الذي أعاد السيطرة الإسبانيَّة على تونس في عام ٩٤٢هـ ١٥٣٥م[2]؛ إذ لم تكن قوَّة خير الدين بكافية للردِّ على ذلك الهجوم، فكان الجيش الإسلامي تعداده سبعة آلاف جندي عثماني، وصلوا مع خير الدين، ونحو خمسة آلاف تونسي[3].

كانت رغبة خير الدين والدولة العثمانية تتجلى في توحيد بلاد المغرب تحت حكم الدولة العثمانية ليتمكنوا من استرداد الأندلس من جديد.

ولم تقف نار الحرب عند هذا الحدِّ بين الطرفين فقد قام خير الدِّين بالردِّ على ضربة تونس بضربةٍ مثلها، فقام بالهجوم على جزر البليار الإسبانيَّة [4]، وعلى سواحلها الجنوبيَّة، فاجتاز مضيق جبل طارق، وانقضَّ على سفنٍ إسبانيَّةٍ وبرتغاليَّةٍ كانت عائدةً من الأراضي الأمريكيَّة، ومحمَّلةً بالذهب، والفضَّة، فاهتزت لتلك الأحداث جميع الأوساط المسيحيَّة، وأقلقت شارل الخامس الذي اعتقد أنَّ خير الدين لن يقوى شأنه بعد حادثة تونس السابقة في ٩٤٢هـ/١٥٣٥م[5].

١- انظر: حقائق الأخبار عن دول البحار، (١/٤٢٠).

٢- انظر: جهود العثمانيين لإنقاذ الأندلس، ص (٣٢١).

٣- انظر: حرب الثلاثمئة سنة بين الجزائر وإسبانيا، ص (٣٢١).

٤- جزر البليار: تقع في جنوب إسبانيا الشرقي في البحر الأبيض المتوسط.

٥- انظر: الدولة العثمانية، د. الصلابي، ص (٢٤١).

خلاصة أخبار الشمال الإفريقي:

أصبحت طرابلس الغرب، وتونس، والجزائر أقاليم خاضعة للسيادة العثمانيَّة وذلك بعد معارك عدَّة انتهت ٩٩٧هـ/١٥٨٨م، وكانت طبيعة السلطة في داخل هذه الأقاليم، قد ضمنت تحقيق الأهداف العثمانية في الحكم من حيث الخطبة باسم السلطان وتحصيل الأموال سنويًّا، والإسهام في حروب الدَّولة، والقبول بالباشا القادم من الآستانة (إستانبول) ممثلاً أعلى للسلطان في حكم الولاية، وهي جميعها من رموز السيادة العثمانية الرسمية[١].

خامساً: الجبهة الأوربية:

عادت الحروب العثمانيَّة الأوربيَّة إلى أوجها السابق، في عهد السلطان سليمان القانوني ابن سليم الأوَّل؛ حيث بدأ السلطان بالاستعداد لفتح جزيرة رودوس التي لها أهميَّةٌ خاصةٌ نظراً لكونها حلقة اتصالٍ بين العاصمة ومصر، ولكسر شوكة فرسان القديس يوحنَّا؛ الذين كانوا يقطعون طريق الحجاج المسلمين الأتراك إلى الحجاز، وقد عجز السلاطين السابقون عن فتح الجزيرة نظراً للتكاتف الصليبي المتين[٢].

فأرسل السلطان إلى رئيس رهبان القديس يوحنا في الجزيرة عارضاً عليه إخلاءها من الرهبان، في الوقت الذي يختاره ومتعهداً إيَّاه بعدم التَّعرض للأنفس والأموال، ولكنَّ رئيس الرهبان رفض اقتراح السلطان سليمان الذي أمر بغزوها بحراً، ووصل إليها وحاصرها حتى نفدت الذخيرة والمؤن عند أهلها، وعندئذٍ طلب رئيسها السماح لهم بالانسحاب منها فقبل السلطان بذلك[٣].

١- انظر: جهود العثمانيين لإنقاذ الأندلس، ص (٤٧٧).

٢- التاريخ الدولة العثمانية، د. علي حسون، ص (٧٠).

٣- المصدر السابق نفسه.

وفي عام ٩٤٤هـ، جهز السلطان سليمان جيشاً في بلاد ألبانيا قوامه ١٠٠ ألف مقاتل لمهاجمة إيطاليا، ونزل خير الدين بربروس جنوبي إيطاليا في ميناء أترانت بغية فتحها من الجنوب، واتفق السلطان سليمان مع فرنسا على أن يهاجم هو من الشرق وملك فرنسا من الغرب، ولكنَّ فرنسا نقضت مواثيقها وأحجمت عن التَّقدم، ففشل المشروع وبذلك لم تدخل إيطاليا ضمن أراضي الدولة العثمانية[١].

أمَّا البندقيَّة فقد عُقِدَ صلحٌ بينها وبين الدولة بعد حروبٍ مستمرَّةٍ سنة ٩٤٤هـ، قضى بتنازل البندقيَّة عن بعض البلاد التي تحكمها لصالح السيادة العثمانيَّة[٢].

وأمَّا بلاد المجر فنشب القتال معها من جديد حتَّى حلَّ عام ٩٤٧هـ، حيث أسرع السلطان سليمان بجيوشه ودخلها، وحوَّل أكبر كنائسها إلى مسجد، وبذلك النصر أصبحت بلاد المجر ولايةً عثمانيَّة[٣].

أمّا في النمسا فقد استمرَّ القتال مع العثمانيين الذين كان النَّصر إلى جانبهم، إلى أن جرت مفاوضاتٌ، وعقدت هدنةٌ مدَّتها خمس سنوات، بشرط أن يدفع (فرديناند) ملك النمسا جزيةً سنويَّة قدرها ٣٠ ألف دوكا للعثمانيين، مقابل البلاد التي بقيت تحت حكمه من بلاد المجر[٤].

سادساً: معاهدة الامتيازات العثمانية الفرنسية:

حدثت هذه المعاهدة في عصر السلطان سليمان القانوني، وكان الهدف منها فتحُ أبواب التجارة مع المشرق دون الخضوع للاحتكار التجاري الذي

١- المصدر السابق نفسه، ص (٧٢).

٢- المصدر السابق نفسه، ص (٧٢).

٣- المصدر السابق نفسه، ص (٧٣).

٤- المصدر السابق نفسه.

فرضته البرتغال بعد اكتشافها طريق رأس الرَّجاء الصَّالح، وحصلت فرنسا بموجبها على الحقِّ الكامل في حماية رعايا الدول الغربيَّة كلها، مما أكسبها مكانةً مرموقةً بين دول أوروبا، وقد وافق السلطان سليمان القانوني على هذه المعاهدة ظنًّاً منه أنَّه ما دامت دولته قويَّةً، فإنَّه يستطيع إلغاء المعاهدة متى شاء[1].

وفي الحقيقة كانت تلك الامتيازات بمنزلة خنجرٍ مسمومٍ في جسد الدولة، فقد كانت تزداد مع كلَّ سلطانٍ جديد، وأصبحت دول أوربا كلَّها تحلم بالحصول على امتيازاتٍ في الدولة العثمانية مثل فرنسا.

أمَّا حال الامتيازات الفرنسيَّة فلم يكن يبشر بالخير، ففي عهد السلطان محمد الرابع (١٦٤٨- ١٦٨٧م) سُمح لفرنسا حقَّ حماية بيت المقدس، وفي تجديد المعاهدة عام ١٧٤٠م أضافت الدولة العثمانيَّة امتيازاتٍ تجاريَّة لفرنسا، ولكنَّ هذه الامتيازات تعرَّضت لخطرٍ حقيقي عندما احتلَّ نابليون بونابرت[2] مصر، فأوقفت الدولة العمل بها، غير أنَّ نابليون كان قد تراجع في الوقت المناسب حفاظاً على علاقته مع الدولة[3].

ولقد بيَّن المؤرخ اليوناني كيتسيكس:

«إنَّ الامتيازات حطَّمت اقتصاد الإمبراطوريَّة بتحطيمها النظام الضريبي العثماني القائم على حماية التِّجارة المحليَّة ضدَّ المنافسة الأجنبيَّة»[4].

١- موقف أوروبة من الدولة العثمانية، ص (٤٧).

٢- نابليون بونابرت (بالفرنسية: Bonaparte Napoléon) (١٥ أغسطس ١٧٦٩/٥ مايو ١٨٢١م) قائد عسكري وإمبراطور فرنسي، ولد في جزيرة كورسيكا التي كانت فرنسا قد استولت عليها قبل ولادته بخمسة عشر شهراً.

٣- الدولة العثمانية قراءة جديدة لعوامل الانحطاط، جواد العزِّاوي، ص (٢٦).

٤- المصدر السابق نفسه، ص (٢٧).

سابعاً: ولا بد من خاتمةٍ تليق بما حققه العشرة الأوائل من سلاطين آل عثمان:

بلغت الفتوحات العثمانيَّة أوجها في عهد السلطان سليمان القانوني، ودخل النَّاس في دين الله أفواجاً لا عن طريق القوة والإكراه، ولكن عن عقيدةٍ واقتناع، وقد نقل الدُّكتور علي حسون في كتابه تاريخ الدَّولة العثمانيَّة قول ((السير توماس آرنولد)) في كتابه الدَّعوة إلى الإسلام، إذ يقول فيه: «إنَّ المعاملة التي أظهرها الأباطرة العثمانيُّون للرعايا المسلمين بعد أن دخلوا بلاد اليونان لتدل على تسامحٍ لم يكن مثله حتَّى ذلك الوقت معروفاً في أوربا، وإنَّ أصحاب (كالفن) في المجر وترانسلفانيا وأصحاب مذهب التَّوحيد من المسيحيين الذين كانوا في ترانسلفانيا لطالما آثروا الخضوع للأتراك على الوقوع في أيدي أسرة هابسبورغ المتعصبة، ونظر البروتستانت إلى تركيَّا بعين الرَّغبة... وكذلك نرى القوازق الذين ينتمون إلى فرقة المؤمنين القدماء الذين اضطهدتهم كنيسة الدولة الروسيَّة قد وجدوا من التَّسامح في ممالك السلطان ما أنكره عليهم إخوانهم في المسيحيَّة»[1].

لقد استمر عهد القوة والازدهار متجلياً في الدَّولة العثمانيَّة حتَّى وفاة السلطان سليمان القانوني وهذه المدَّة هي: (٦٩٩- ٩٧٤هـ / ١٣٠٠- ١٥٦٦م)، حكم فيها عشرة سلاطين عثمانيين كانت أعمالهم أساس قوةٍ وهيبةٍ لمن جاء بعدهم من السلاطين.

نعم لقد استطاعت الدَّولة العثمانيَّة في أقل من قرنين من الزمن أن تمد جناحيها شرقاً وغرباً وجنوباً وتدق أبواب فيينا باسطةً لواء الإسلام على معظم ما يعرف اليوم بدول أوربا الشرقية واليونان وجزر البحر الأبيض المتوسط وأجزاء من إيطاليا

١- تاريخ الدولة العثمانية لدكتور علي حسون ، ص (٧٤)

والنمسا، كما خضعت لسيطرتها الأرض الممتدة من شمال القفقاس شمالاً حتى الصحراء الإفريقية جنوباً وحدود المغرب الأقصى غرباً، كما أنها مدت جناحها الشرقي حتى بلاد فارس وجبال كردستان، شاغلةً مساحة من الأراضي قدرت بأكثر من ١٠ ملايين ميل مربع فكانت أقوى دولة في العالم آنذاك[1].

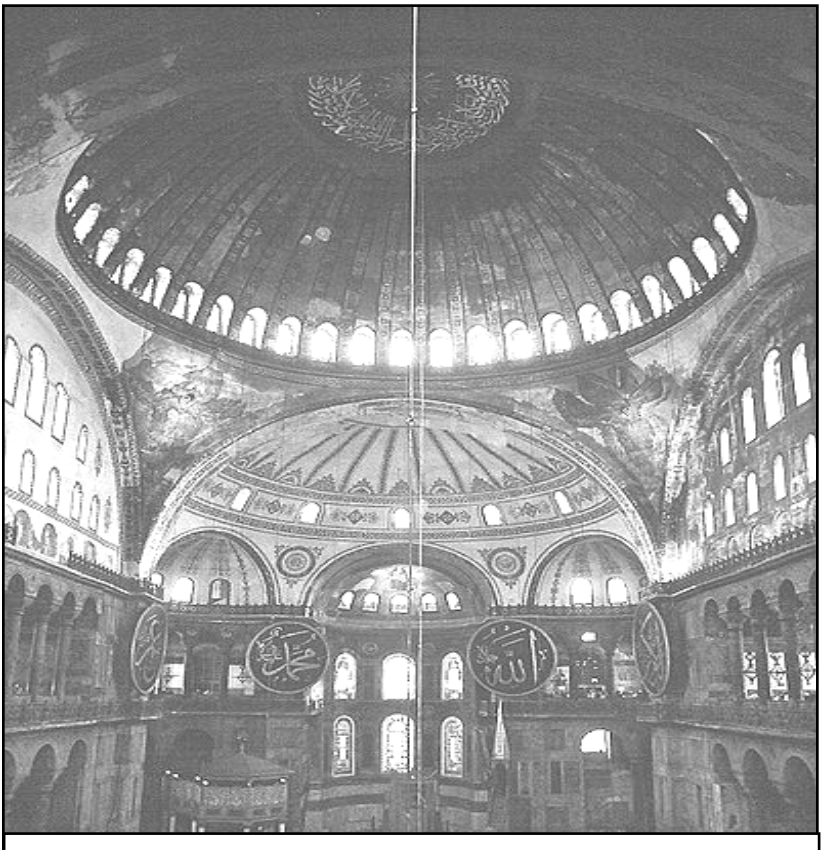

لقطة داخلية لقبة آيا صوفيا تظهر بها الزخارف الإسلامية التي صنعت أثناء الوجود العثماني آنذاك.

١- تاريخ الدولة العثمانية للدكتور علي حسون ص (١١-١٢).